

# الباب الاول

في

## الاقليم والسكان

### تمهيد

ان هذا الباب يتناول وصف الحالة الاقليمية في بلاد الحجاز ،  
وطبيعة مناطقها من حيث الطقس والماء والجذب والخصوبة ، ويتناول  
كذلك وصف السكان وأجناسهم لغاتهم — أصليين وأجانب —  
ومساكنهم ومعايشهم ، وأطعمتهم وأشربتهم ، ولهوهم وألعابهم ،  
وما كانوا يقومون به من أعمال تجارية وصناعية وزراعية وملاحية  
وصيد ورعي وتربية ماشية الخ ...

ويحتوي الفصول الآتية :

الفصل الأول : الحجاز وأهله

الفصل الثاني : الحركة الاقتصادية والمعيش

الفصل الثالث : الجاليات الاجنبية في الحجاز

# الفصل الثاني

## الحجاز والهدم

أقليم الحجاز في القرآني - منطقة مكة وجديها - شدة حرارتها -  
شح مياهها - مناطق خصبة - المنطقة الساحلية - دلالة حفاوة القرآن  
بالبحر - تعليق على بعض الروايات - المدن الحجازية - مكة -  
يثرب - الطائف - مكة أم القرى - أسباب عظمة مكة الرئيسية -  
مدن الحجاز الثانوية وقراها - غنى مكة واثره - قدسية مكة -  
خطورة يثرب ومظاهرها - خطورة الطائف - تنوع - سكان المدن -  
سكان المدن في طور الكيان القبلي - البادية والبدو - الجنس العربي  
في القرآن - بحث في شمول الجنسية العربية - بحث في أصل سكان  
بيئة النبي ( ص ) من الوجهة القرآنية - استدلال قرآنية في صدد  
كون لغة القرآن هي لغة أهل الحجاز أولاً ولغة سائر العرب ثانياً -  
تفنيديات - استدراقات .

الهدم والهدم

- ١ -

قد يكون إقليم الحجاز من الوجهة الطبيعية معروفاً بالبداهة والواقع  
القائم المستمر والمشاهد ؛ غير أننا لم نر بأساً من استلهاهم القرآن في وصفه  
لتكون سلسلة الكلام متصلة دون ثغرات ؛ هذا عندما في الوصف

القرآني من حيوية وقوة وخاصة في صدد وصف المناطق الخصبة والساحلية  
فنعول انه في القرآن آيات عديدة تتضمن اوصافاً متصلة بالحالة الاقليمية  
الطبيعية ؛ وجه الخطاب فيها الى مخاطبين قريبين ، وفيها ما يخص بعض  
النواحي تخصيصاً ، مما يصح القول معه انها مصروفة الى القطر الحجازي وأقليمه .  
وبحسب هذه الأوصاف يمكن ان يقال ان القرآن قد قرر أن في القطر  
الحجازي مناطق مختلفة الحالات من الناحية الاقليمية والطبيعية .

فهناك منطقة جدهاء ، شديدة الحرارة ؛ شحيحة المياه ، محاطة بالجبال  
يعيش أهلها على ما يجلب اليها من الرزق جلباً من الخارج ، وهي منطقة  
« مكة » او بتدقيق أكثر منها منطقة مكة .

ففي سورة ابراهيم آيات فيها حكاية لدعوات ابراهيم ( ص ) ، وفي  
هذه الآيات وصفت منطقة البيت الحرام — وهي منطقة الكعبة او مكة  
— بكونها وادياً غير ذي زرع ، وحكيت دعوة ابراهيم ( ص ) بأن  
يرزق الله أهله من الثمرات ، ويجعل أفئدة الناس تهوي اليهم :

« ربنا اني أسكنت من زريقي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم  
ربنا ليعيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من  
الثمرات لعلهم يشكرون ... ٣٧ ابراهيم

وفي سورة القصص آية فيها رد على أهل مكة ، وفيها إشارة الى  
ان الله قد جعل حرمهم آمناً يجي اليه ثمرات كل شيء ، وهذا يعني ان  
رزقه يجلب اليه من الخارج :

وقالوا إن تدبّع الهدى معك تتخطّف من أرضنا أو لم تكن لهم  
حراماً آمناً يجي اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ... القصص ٥٧  
وهناك آيات في سورة النحل ( ١١٢ ) وسورة البقرة ( ١٢٦ ) فيها  
توكيد لهذا المعنى ايضاً .

ومن آية القصص يفهم أن اهل مكة كانوا يرون في حرمة البيت  
الحرام ، وهوى أفئدة الناس اليهم أسباب معاشهم وأمنهم وحرمتهم ، وأنهم

كانوا يخوفون من الحرمان من هذه الأسباب اذا تابعوا النبي ( ص ) في دعوته ؛ مما يدل على المعنى الذي نحن في صدد تقريره ايضاً .  
اما شدة حرارة هذه المنطقة فيمكن الاستدلال عليها من آية في سورة النحل :

والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر (١) وسراويل تقيكم بأسكم (٢) كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تاسمونه . . . . . النحل ٨١  
حيث أشير فيها الى الظلال وأكنان الجبال التي كان السكان يهرعون اليها للاحتباء من الحر ؛ وكذلك فقد أشير فيها إلى السراويل التي تقي الحر دون ان يذكر فيها السراويل التي تقي البرد ؛ كأنه لم يكن ملجأ جوي إلا الحر وشدته فقط . والآية تذكر هذا من جملة ما من على أهل مكة من النعم والعناية ، وهذا قد يلهم شدة ما كان يقاسونه من الحر .

وفي ذكر الجبال وأكنانها ما يدل على ما قلناه من احاطة مكة بالجبال احاطة مباشرة كما هو المتبادر .

ويمكن الاستدلال على شح المياه في هذه المنطقة من ما كان من مهمة سقاية الحاج وتوفير المياه له التي كانت يقوم بها بعض بيوتات قريش .

---

(١) ان بعض المفسرين قالوا ان في هذه الجملة جملة مضمرة اخرى اكتفى بها عنها وتقديرها « تقيكم الحر وتقيكم البرد » وروح الآية من جهة واكتفاؤها بذكر الظلال والاءكنان من جهة يجعل هذا التقدير غير قوي الورود ؛ ويجعل قصد الحر هو الاصل . على ان في سورة النور آية تتضمن قرينة على صحة قولنا وهي « حين تضعون ثيابكم من الظهيرة (٥٧) فهذا التعبير يعني قبولة النهار والاستبراد بالتخفف من الثياب فيه ولم يذكر مقابل ذلك عن الشتاء وفي هذا قرينة على شدة الحر دون البرد  
(٢) البأس بمعنى الحرب

وقد أشير الى هذه المهمة في احدى آيات سورة التوبة في صدد المفاضلة  
بينها وبين الأيمان بالله والجهاد في سبيله :

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر

وجاهد في سبيل الله . . . التوبة ١٩

فأهتم أهل مكة لتوفير المياه للحجاج هذا الاهتمام الذي يجعلهم يرون

في مهمة السقاية فضيلة عظيمة انما هو بسبب شح المياه في منطقتها كما  
هو المتبادر . وهذا يجعلنا ندرك الحفاوة العظيمة التي أسبغت على رواية حفر  
بئر زمزم وما جرى في صدد ذلك مما جاء في كتب السيرة مفصلاً (١)

— ٢ —

على ان في القرآن آيات عديدة تنوه بما ينزل الله من الامطار ،

ويتفجر من العيون والينابيع ، وما ينبت من الزروع وأشجار النخيل

والأعناب والرمان والزيتون والثمار المتنوعة الاخرى ، وتصف ما كان

يظهر على السكان من هلع اذا ما امسكت السماء واصفر الزرع من العطش

ويوجه الخطاب فيها الى مخاطبين قريبين تذكرهم بنعمة الله وآياته التي يرونها

ويتمتعون بها كما ترى في ما يلي :

(١) — وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء

فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها

قنوانٌ دانيةٌ وجناتٌ من أعنابٍ والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابهٍ

انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون . . .

الأنعام ٩٩

(٢) — وهو الذي انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل

والزروع مختلفاً أكله الزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كالأمر

اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده . . . الأنعام ١٤١

٣ — وهو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجر

(١) اقرأ ابن هشام ج اص ١٣٤ وما بعدها .

فيه تسميهمون . يُدبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن  
كل الثمرات . . . . . النحل ١٠ - ١١

٤ - وأزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناها في الأرض وأنا على ذهاب  
به لقادرون . فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه  
كثيرة ومنها تأكلون المؤمنون ١٨ - ١٩

٥ - الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه في السماء كيف  
يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من  
يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن يُنزل عليهم  
من قبله لباسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحمي الأرض بعد موتها  
إن ذلك للحي الموتى وهو على كل شيء قدير . وإئن أرسلنا ريحاً فرأوه  
مُصفرًا لظلوا من بعده يكفرون . . . . . الروم ٤٨ - ٥١

٦ - وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون  
وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وجفرتنا فيها من العيون لياًكلوا من  
ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . . . . . ياسين ٣٣ - ٣٤

٧ - والأرض مددناها والقمينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج  
بهيج . تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً  
فأنبتنا به جناتٍ وحب الحصيد . والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ . رزقاً  
للعباد . وأحيينا به بلدةً ميتةً كذلك الخروج . . . . . قاف ٧ - ١١

٨ - أفرايتم ما تبحرثون . أهتم تزرعون أم نحن الزارعون . لو  
نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهيون . أنا لمفرمون بل نحن محرومون .  
أفرايتم الماء الذي تشربون . أهتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون  
لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . . . . . الواقعة ٦٣ - ٧٠

٩ - فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا  
الأرض شقاً . فأنبتنا به حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق  
مُغلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولانعامكم . . . . . عبس ٢٤ - ٣٢

فإنك إذ تقرأ هذه الآيات تلمس ان القرآن كان يوجهها ويخاطب بها  
اهل الحجاز بل وأهل مكة في الدرجة الاولى لان الآيات جميعها مكية  
ومع ان الآيات بسبيل تعداد نعمة الله على الناس بصورة عامة فإنها كانت  
ولا ريب تلفت نظر المخاطبين الاولين وهم أهل الحجاز وخاصة أهل مكة  
وما جاورها الى هذه النعم التي كانوا يشاهدونها ويتمتعون بها ؛ وبعبارة  
ثانية ان من البديهي ان تكون الآيات معروفة الى ما كان في الحجاز  
نفسه وفي الانحاء المجاورة لمكة بنوع خاص من مناطق تجود فيها التربة ،  
وتغزر فيها الأمطار ، وتتفجر فيها العيون والينابيع ، وتخضر فيها الأرض  
وتربو وتنبث من كل زوج وصف من الزروع والكلاء وحب الحصيد وأشجار  
النخيل والأعنان والرمان والزيتون والثمرات المتنوعة الأخرى ،  
وهذه المناطق ان لم تعينها الآيات كما عينت منطقة مكة — البيت  
الحرام — فإنها معينة واقعيًا ؛ وهي مناطق الطائف وأرباضها ، والوديان  
التي بين مكة وجدة ، ويثرب وأرباضها كذلك . فهذه المناطق لا تزال  
تحتفظ الى الآن بكثير من الينابيع والوديان ، وتمتع بخضرة السهول  
وجنات العنب والنخيل ومتنوع الفواكه والزروع ؛ تنزل فيها الأمطار  
أكثر من منطقة مكة ، فتمتلاء الوديان ، وتسيل السيول ، وتجري الغدران  
وتتفجر العيون والينابيع ، وتخضر الأرض وتأخذ زيتها وينبت فيها مختلف  
النبات والأشجار مما يتعلق عليه تلك الاوصاف الاخذة الواردة في  
في الآيات بعد نزول الامطار من بهجة وخضرة وحياة .

— ٤٢ —

وهناك آيات كثيرة تنوه بالبحر ووصافه وانوائه وامواجه وخطاره  
واسفاره ، وما يخرج فيه من الفلك والجواري المنشآت كالأعلام  
وما يقوم به الناس من اسفار بحرية ابتغاء الرزق والتجارة ، وما  
يستخرجونه منه من اللحوم والآلي الزينة المتنوعة كالؤلؤ والمرجان كما  
ترى في الآيات التالية :

١ - وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ٠٠٠

الانعام ٩٧

٢ - هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك

وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الى الله مخلصين له الدين ٠ يونس ٢٢

٣ - وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا

منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون . النحل ١٤

٤ - ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله أنه

كان بكم رحيمًا . واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما

نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا . الاسراء ٦٦-٦٧

٥ - أم أمنتم ان يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً

من الريح فيغرقكم . الاسراء ٦٩

٦ - أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه

سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها . النور ٤

٧ - وما يستوي البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ومن

كل تأكلون للحا طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر

ولتبتغوا من فضله . فاطر ١٢

٨ - ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . ان يشأ يسكن الريح

فيظللن رواكد على ظهره . الشورى ٣٢-٣٣

٩ - مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان

يخرج منهم اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار

المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان . الرحمن ١٩-٢٥

١٠ - أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة . المائدة ٩٦

ومع ان هذه الآيات هي الأخرى في تعداد نعم الله وآلائه على الناس

وبسبيل الدعوة الى الله وحده فنبذ ما عداه والتذكير بانده هو الملجأ  
الواحد في الشدائد والاطوار؛ فان ما فيها من ضمير المخاطب ، وما تحمله  
من طابع الخطاب القريب يدل على ان الكلام موجه الى المخاطبين الاولين  
به وهم اهل الحجاز ، وان لاهل الحجاز صلة بالاعمال البحرية المتنوعة  
وبالتالي يحمل الاشارات الى المنطقة الساحلية في القطر الحجازي ، وما كان  
يقوم به في ثغورها من حركة وملاحة وصيد وغوص ، وما كان لاهل  
الحجاز وخاصة مدنه وتجاره من منافع عظيمة من ذلك .



وكثرة الآيات ، وتكرار التعداد ، وتنوع الاساليب ، وبكاسة اخرى  
هذه الحفاوة القرآنية في الاشارة الى البحار وما فيها وما يجري فوقها  
وما يعود منها من المنافع المتنوعة مع ما في بعضها من التعميم يمكن ان  
تدل على ان حركة الملاحة والصيد والغوص لم تكن ضعيفة ، وانها كانت  
تعاين على اهل الحجاز في معاشهم وحياتهم التجارية والاقتصادية  
تعويلاً غير يسير .

ويؤيد هذا الاستدلال الخطاب القريب في اكثر الآيات اولاً ، ووجود  
منطقة ساحلية طويلة ، بل على طول البلاد الحجازية ثانياً ، وما بين  
الحجاز والاقطار المجاورة من ابعاد شاسعة يمكن ان ييسر لهم البحر  
واسفاره سرعة الاتصال بها وسهولته ثالثاً .

ولقد روت الروايات ان عمر بن الخطاب (رض) سأل عمر بن العاص (رض)  
ان يصف له البحر فاجابه قائلاً : خاق عظيم يركبه خلق صغير مثل دود  
على عود ، وان عمر بن الخطاب نهى عمر بن العاص بن العاص عن المجازفة  
بالمسلمين في ركوب البحر ، وقد اخذ الرواية بعض الكتاب الحديثين  
قضية مساهمة فقال ان عرب الحجاز لم يكونوا يعرفون البحر وركوبه  
وتهافت الرواية والتعليق واضح ؛ فعمرو بن الخطاب وعمرو بن العاص كانا  
تاجرين ، وزارا بلاد الشام ومصر وفارس قبل الاسلام ، وعمرو انما

سارع الى فتح مصر بناء على معرفته السابقة بها ، ولا يعقل ان لا يكونا  
 وأيا البحر ؛ والقرآن قد ذكر البحر مرات كثيرة ذكر وصف وركوب  
 واخطار وتجارة وصيد وغوص ولا يعقل ان يكون هذا والسامعون  
 الاولون لا يعرفون من امر البحر شيئاً . هذا بالاضافة الى ان جزيرة  
 العرب محاطة بالبحر من شرقها وجنوبها وغربها والقسم الاعظم من سكانها  
 في المناطق القريبة من هذه السواحل ، وفريق منهم في السواحل بالذات  
 ولا يصح ان يكون هذا وان لا يكونوا قد عرفوا أمره وانتفعوا به  
 شتى الانتفاعات وركبوه في اسفار قريبة وبعيدة ايضاً .

### الطعن الحجازية

— ٥ —

يستطاع من فحوى الآيات ان يستدل على ان من سكان القطر  
 الحجازي الحضري الذين يسكنون المدن والقرى والبدو الذين يسكنون البادية .  
 وقد ذكر في القرآن من مدن الحجاز مدينتان باسميهما وهما « مكة  
 المكرمة » و « المدينة المنورة » وتخصيصها بالذكر يمكن ان يدل على انها  
 كانتا المدينتين الرئيسيتين القطر الحجازي .

اما الاولى فقد ذكرت بلفظي « مكة » و « بكة » كما ترى في هذه الآيات :

١ — ان أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين .

آل عمران ٩٦

٢ — وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة

من بعد ان اظفركم عليهم .

وأمّا الثانية فقد ذكرت باسمها القديم « يثرب » وذكرت كذلك

باسمها الذي اصبح علماً لها بعد الإسلام وهو المدينة كما ترى في هذه الآيات

١ — واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا

الاحزاب ١٣

٢ — ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله .  
التوبة ١٢٠

وقد اشير الى مدينة مهمة ثلاثة اشارة ضمنه في الآية الآتية :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الزخرف ٣١  
حيث اجمع المفسرون على ان القريتين هما مكة والطائف .

هذا : وننبه على ان لفظا القرية والمدينة قد ترادفا في القرآن كما

يستدل من الآيات التالية :

١ — واسأل القرية التي كنا فيها . يوسف ٨٢

٢ — وكأني من قرية هي أشد قوة من قريتك التي اخرجتك

اهلكناهم . محمد ١٣

حيث اريد في الاولى مصر وفي الثانية مكة كما هو ظاهر .

كذلك سمي القرآن العاصمة او المركز الكبير الذي تتجمع حوله المدن

الثانوية والقرى باسم « أم القرى » كما ترى في هذه الآية :

وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم

آياتنا . القصص ٥٩

## — ٦ —

وقد اطلق هذا الاسم على مدينة مكة كما ترى في الآية التالية :

وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً لنتذركم القرى ومن حولها ..

الشوري ٧

ومما لا ريب فيه ان هذه التسميات كانت جارية مألوفة قبل نزول

القرآن ، لان القرآن قد نزل بلسان القوم ومصطلحاتهم .

ومن اطلاق لفظ « أم القرى » على مكة يمكن ان يستدل على انها

كانت مدينة كبيرة كما يستدل من آيتي القصص و ابراهيم ٥٧ و ٣٧ اللتين

نقلناهما قبل على انها كانت تتمتع بمركز محترم ، وتوجه عام من سائر

الانحاء . ولقد كان موقف اهلهما السليبي من الدعوة النبوية عاملاً الى

درجة كبيرة في وقوف سائر مدن الحجاز وقراها وسكان باديها بل  
وسكان انحاء جزيرة العرب الاخرى بوجه عام مثل ذلك الموقف ، كما  
أن فتحها ودينوتها بالاسلام كانا عاملين رئيسيين في دينونة جميع اولئك  
بالاسلام ودخولهم في دين الله افواجا كما هو ثابت بالتواتر وكما يستدل  
عليه من سورة النصر :

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله  
افواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا »  
وهذا مؤيد لما قررناه من خطورة شأن مكة « أم القرى » وتمتعها  
بالمركز المحترم ، والتوجه العام .

ومما لا ريب فيه ان وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة وحواليها  
كان عاملاً كبيراً او العامل الاكبر في تلك الخطورة وهذا المركز  
والتوجه الذين كانت تتمتع بها .

ولعل ما كان من ارتداد اصحاب الفيل وما حل فيهم عندها قبل مدة  
قليلة من البعثة مما ذكرته سورة الفيل : « ألم يجعل كيدهم في تضليل  
وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف<sup>(١)</sup>  
مأكول . » كان من العوامل التي وطد لمسكة مركزها وهيبتها وخطورتها  
التي كانت لها قبل هذا الحادث على ما هو المتبادر .



ومن اطلاق لفظ « أم القرى » على مكة يمكن الاستدلال على وجود  
مدن ثانوية وقرى عديدة في القطر الحجازي وخاصة في منطقة مكة .  
وقد يستلهم هذا من الآيات التالية ايضاً :

« افأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم ناعون . اوأمن اهل  
القرى ان يأتيهم بأسنا ضحياً وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر  
الله الا القوم الخاسرون .  
الاعراف ٩٧ - ٩٩

---

(١) ورق الزرع

ومن هذه المدن والقرى ما لا يزال موجوداً ومعروفاً ؛ ولا بد من ان قرى كثيرة كانت ثم عفت ولم يبق منها الا رسوم او اطلال او لم يبق منها شيء . ويقع المطالع في الكتب العربية وكتب السيرة على اسماء كثير من القرى عني اكثرها ، وهذا مما يؤيد الاستدلال .



ومع ان خطورة مكة والاتجاه العام اليها هما بسبب وجود الكعبة ومناسك الحج فيها كما قلنا ، فان في بعض الآيات ما يدل على ان من اسباب هذه الخطورة ما كان فيها من حركة تجارية واسعة ومستمرة ، وما كان اهلها يملكونه من ثروات طائلة ايضاً .

فسورة قريش تشير الى حركة رحلات التجارة المكية صيفاً وشتاءً وحركة الاستعداد الدائمة لها :

« لا يلاف قريش ايلافهم . رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .  
وهذه بعض آيات تدل على ثرواتهم الطائلة :

- ١ — واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا (١) . الكهف ٢٨
- ٢ — واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قل الذين كفروا الذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً واحسن ندياً . مريم ٧٣
- ٣ — ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . (٢) طاه ١٣١

٤ — أychسبون أن ما نعدهم به من مال وبنين . نسا رع لهم في

---

(١) فيها امر للنبي بالتزامه المسلمين على فقرهم وعدم تركهم قصد ملاحقة الاغنياء ذوي الزعامة والجاه .

(٢) فيها نهى مماثل في مداه لما في آية الكهف ودلالة على ما كان بعض اهل مكة يمتنعون به من ثروة وترف .

الخيرات بل لا يشعرون. المؤمنون ٥٥ - ٥٦

٥ - وقالوا نحن اكثر اموالا واولاداً ومانحن بمؤمنين . (١) سبا ٣٥

٦ - ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا محموداً . المدثر ١١ - ١٢

٧ - يقول اهلكت مالا ابداً . البلد ٦

٨ - ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب ان

ماله اخلاده  
الهمزة ١ - ٣

## - ٩ -

ومن الآيات التي نقلناها قبل قليل يستدل على ان مكة كانت تعتبر مدينة مقدسة ، وان منطقتها كانت حراماً أي ان القتال وسفك الدم فيها محرمان بسبب هذه القدسية . وفي سورة العنكبوت آية تشير الى هذا المعنى بوضوح حيث تذكر اهل مكة بما يتمتعون به من الامن بسبب حرمهم بينما يتعرض غيرهم للاخطار والمخاوف الداعة :

« اولم يروا انا جعلنا حراماً امناً ويخطف الناس من حولهم .

العنكبوت ٦٧

والفقرة الثانية من آية سورة قريش الثالثة تؤيد هذا المعنى ايضاً .

وآية القصص (٥٧) تلهم ان مكة لم تكن محصنة ، وان اهلها انما

كانوا يعتمدون في امنهم على قدسيتهما في الدرجة الاولى ؛ حيث تحكي

اعتذار بعض الزعماء للنبي عن عدم متابعتهم له وقولهم انهم اذا تبعوه

وتخلوا عن تقاليدهم التي تقديست بها مكة زالت مناعتها واصبحت عرضة

لهجوم المهاجمين وتخطفهم اهلها بسيوفهم :

« وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم

حراماً امناً يجبي اليه ثمرات كل شيء . القصص ٥٧

ويظهر ان ما احتوته الفقرة الثانية من تقرير بقاء قدسية مكة وحرمتها

في الاسلام لم يطعنهم فظلموا في موقفهم الجحودي ذلك الامد الطويل .

(١) الآيات جميعها مكية وموضوع الكلام فيها اهل مكة كما هو المتبادر .

وفي الآيات المدنية ما يمكن الاستدلال به على ان يثرب كانت مدينة كثيرة السكان ، وخطيرة الشأن والمركز ايضاً . فقد كان يسكن في احيائها وارباضها المتصلة بها قبائل عديدة من اليهود كانوا ذوي أموال طائلة ، وحصون وقلاع منيعة ، وبساتين وأرضين غنية كما ترى في الآيات التالية :

١ - وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيمهم (١) وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطوؤوها وكان الله على كل شيء قديراً الاحزاب ٣٦ - ٢٧

٢ - هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب (٢) من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . الحشر ٢ - ٣

٣ - ما قطعتم من لينة (٣) او تركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين . وما افاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء

---

(١) صياصيمهم = حصونهم . والمعنيون الآيات هم يهود بني قريظة وكانوا يسكنون في المدينة وارباضها وهم آخر من نكل بهم .

(٢) المعنيون في الآيات هم يهود بني النضير وكانوا يسكنون في المدينة وارباضها ، وقد اجلوا قبل وقعة بني قريظة .

(٣) لينة = نخلة صغيرة ؛ والآية تشير الي ما كان من امر النبي بتقطيع بعض بساتين بني النضير ارغاماً لهم .

قُدِير . ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى (١) فلاله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . الحشر ٥ - ٧

٤ - لا يقاتلونكم جميعاً ألا في قرى محصنة او من وراء جدر بأسيهم بينهم شديد . الحشر ١٤

٥ - كمثل الذين من قبلهم (٢) قريباً ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم . الحشر ١٥

وبلغت النظر الى آية الحشر الثانية حيث تتضمن وصفا قويا لما كانت عليه حصون اليهود من مناعة واليهود انفسهم من قوة ؛ حتى ان المسلمين لم يكونوا يأملون في النصر عليهم واخراجهم كما ان اليهود انفسهم كانوا يعتقدون انهم اقوى من ذلك وانها مانعتهم .

وقد كان يسكن المدينة الى جانب اليهود بطون عربية عديدة وقوية البأس ، وكانت المدينة وضواحيها مسرحاً لما كان يقع بينها من حروب بسبب ما بينها من عداة كما ترى في الآيات التالية :

١ - واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا . آل عمران ١٠٣

٢ - وهو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٣) وألف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم . الانفال ٦٣

٣ - ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل

---

(١) اشارة الى ما وهبه الله للنبي من اموال وكروم ومزارع

نبي النصير .

(٢) المعنيون في الآية هم يهود بني قينقاع . وكانوا يسكنون في

المدينة . وقد كانوا اول من اجلاهم النبي من اليهود .

(٣) في هذا اشارة الى قوة بأس عرب المدينة الذين عرفوا

بالانصار .

الله والذين آووا ونصروا (١) .

وإذا كان في القرآن ما يمكن الاستدلال به بصراحة على ما كان لليهود من حصون وقلاع وثروات وأرضين هي من أسباب وشأن المدينة فلا يعني هذا أن العرب لم يكن لهم مثل ذلك . ففي الآيات المدنية على أنه كان مثل هذا للمسلمين ، وجلهم إن لم يكن كلهم عرب ، واكثرهم الساحقة من أهل المدينة لأن أكثر هذه الآيات مما نزل قبل الفتح المكي حيث كثر عدد المسلمين من غير أهلها ، وهذا بعض الآيات :

١ - يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض .

٢ - قل انفقوا طوعاً أو كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوماً فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون . فلا تمجيك أموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد انفسهم وهم كفرون (٢) .

وقد ذكرت روايات السيرة المعتبرة انه كان للعرب بعض الآكام والحصون كما كان لليهود ، وان كنا نرجح ان حصون اليهود وقلاعهم كانت اكثر واقوى . ولعل هذا مما تلهمه آية في سورة الاحزاب بالاضافة الى آية الحشر ( ٢ ) . اما آية الاحزاب فهي :

« ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عبورة وما هي عبورة الاحزاب ١٣

حيث تحجج بعض المنافقين بان بيوتهم مكشوفة لحصون اليهود . والآية منصبة على تكذيب المحتجين وليس على نفي ما تلهمه هي وآية الحشر كما هو المتبادر .

---

(١) في هذه الجملة اشارة الى الانصار ودلالة على قوة باسهم .  
(٢) موضوع الخطاب والتنديد هم المنافقون وجميعهم من أهل المدينة .

ومن اسباب خطورة مركز المدينة وقوعها في طريق القوافل التجارية  
 القادية الرائحة بين الشام والجزيرة . ولقد تضمنت احدى آيات الانفال  
 اشارة الى ذلك حيث اشير الى قافلة مكة كانت تمر قرب المدينة رأى  
 النبي (ص) فرصة لضرب اهل مكة وضرب تجارتها وهي :  
 وإذا بعدكم الله احدى الطائفتين انما اسمك وتودون ان غير ذات  
 الشوكة تكون لكم ... ٧  
 وغير ذات الشوكة هي القافلة التجارية المكية التي لم يكن معها  
 حامية كافية .

## - ١١ -

وليس في القرآن ما يستدل به على خطورة مدينة الحجاز الثالثة  
 « الطائف » غير آية الزخرف ( ٣١ ) التي نقلناها قبل . والتي يستدل  
 منها على ان خطورة شأن رجالها واهلها مقاربة لما كانت من ذلك لرجال  
 مكة واهلها ؛ لانها تحكي عجب كفار اهل مكة وقولهم انه كان الاولى  
 ان كان القرآن الهياً ان ينزل على عظيم من عظماء مكة او الطائف . على  
 ان الروايات القديمة المعتبرة قد ذكرت ان الطائف كانت مدينة كبيرة  
 وغنية ، وان اهلها ذوو بأس ، وانها كانت محصنة بسور ، ولعلمها الوحيدة  
 في ذلك بين مدن الحجاز .

## - ١٢ -

اما سكان المدن الحجازية فقد كانوا انواعاً في الجنس والدين كما تلهم  
 الآيات القرآنية بالنسبة للثنتين الرئيسيتين منها وهما مكة ويثرب ، حيث  
 تلهم انه كان في مكة جالية اجنبية قايلة الى جانب اكثرية اهلها العرب  
 الذين عيبت سورة قريش اسمهم القبيلي العام وهو « قريش » كما تلهم انه  
 كان الى جانب اكثرية سكانها المشركين اقلية كتابية وموحدة على ما  
 سوف نلم به في فصول اخرى ؛ وحيث تلهم انه كان في يثرب جاليه  
 اسرائيلية كبيرة العدد على التحقيق ، واقلية نصرانية عربية واجنبية على

الاحتمال الى جانب اهلها العرب أيضاً على ما سوف نلم به في فصل آخر كذلك . واذا كان ليس بالقرآن اشارات يمكن الاستدلال بها على الحالة في المدن الاخرى فان الذي نرجحه ان ثغر الحجاز جده لا بد من ان يكون فيه تنوع في السكان جنساً وملةً بسبب طبيعتها الساحلية . اما الطائف فنرجح انها أقل المدن الحجازية المهمة تنوعاً في السكان .

ونبه على أمرهم في عدد اكثرية سكان هذه المدن ، حيث يستلهم من بعض الآيات من جهة ومن الروايات المتواترة البالغة حد اليقين من جهة اخرى انها كانت مازال في حياتها الاجتماعية في طور الكيانات القبلي . فقريش التي هي اكثر سكان مكة على ما لهتمته سورة قريش متفرعة الى بطون عديدة على النمط القبلي تمت جميعها الى أسم قريش والى أصل او جد واحد غير بعيد في القدم . ومما يمكن الأستلهام به على هذا آية زوجات النبي (ص) في سورة الأحزاب :

« يا ايها النبي إنا أحللتنا لك ازواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك . ٥٠ »

ومن الثابت اليقيني انه لم يكن بين زوجات النبي (ص) من هي بنت عم مباشر له ولم يكن بينهم من هي من بطن هاشم عشيرة النبي (ص) الأقربين ؛ وانما كن من بطون قريش الاخرى ، فعائشة بنت ابي بكر (رض) من بطن التيم وحفصة بنت عمر (رض) من بطن عدي وام حبيب بنت ابي سفيان (رض) من عبد شمس وام سلمة (رض) وسودة بنت زمعه (رض) من بني عامر . وهكذا تكون النسبة القرآنية هي نسبة قرابة البطون التي تتألف منها قبيلة قريش . والمعروف في التقاليد العربية ان احوال اب الرجل وجده هم أخواله وأعمام ابي الرجل وجده هم أعمامه ايضاً ؛ وقد حمل أكثر من مفسر ومنهم من استند الى رواية عن عباس أبة الشورى :

قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى . . . ٣٣٣  
على هذا المحمل ؛ وأولوا الآية بأن الله أمر نبيه بتذكير قريش بما  
يربط بهم من قربي توجب عليه النصيحة لهم دون ان ينتظر أجراً  
وتوجب عليهم الاستجابة اليه لانه غير متهم ؛ وهو تأويل في غاية الوجاهة .  
وعرب يثرب يتألفون من قبيلتين يمانية المصدر وأهلها من أصل  
واحد ، وهما قبيلتا الخزرج والأوس اللتين أشرنا اليهما قبل وقلنا انها كانتا  
متعاديتين قبل الهجرة النبوية ؛ وكناتهما مقسمة الى يطون على النمط  
القبيلي ايضاً مثل بني عوف وبني النجار وبني الحرث وبني جشم وبني  
ساعدة الخ

وعرب البطائف هم قبيلة ثقيف التي لا بد من ان تكون هي الأخرى  
مقسمة الى فروع مثل فروع قريش والأوس والخزرج .  
وكما ان عرب المدن الحجازية كانوا في طور الكيان القبيلي فانهم كانوا  
في حياتهم الاجتماعية ضمن نطاق هذا الطور ايضاً ، حيث كانت تقوم  
على أساس العصبية الاجتماعية على ماسوف نلم به في فصل آخر .  
اما حياتهم المعاشية فقد كانت مع انطباعها بطابع حياة المدن على الغالب  
حيث كانت مجالاً لحركة اقتصادية نشيطة تجارية وزراعية وصناعية ؛  
وحيث كان أهلها او فريق منهم يستمعون بحياة ترف ونعيم حضرية فانها لم  
تكن قدماحي عنها طابع البداوة وحياتها ، وكانت الصلات بين أهلها وبين  
البادية والبدو وثيقة ومن ناحية الحياة الاجتماعية ومن ناحية الحياة المعاشية  
معاً على ماسوف نلم به كذلك في فصول أخرى .

### البادية والبدو

— ١٣ —

قلنا قبل ان الآيات تشير الى ان سكان القطر الحجازي حضر وبدو .  
وقد ذكر القرآن البدو « بمعنى » البادية « كما جاء في سورة يوسف :

« ... وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ١٠٠  
واطلاق كلمة الاعراب على القبائل البدوية تقريباً لهم عن سكان المدن  
والقرى كما ترى في الآيات التالية :

١ - « ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة  
مردوا على النفاق .... التوبة ١٠١

٢ - يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم  
بادون في الاعراب .... الاحزاب ٢٠  
ومن آية التوبة يمكن ان يستدل على ان من الاعراب من كان ينزل حول  
المدن كما ان آية الاحزاب يمكن ان تلهم ان منهم من كان يوغل في البادية ولا يلم  
بالمدين الا قليلاً .

وفي بعض الآيات وصف قارع الاعراب ، وهو ماجاء في سورة التوبة  
في صدد وصف كفارهم ومنافقيهم : « الاعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر  
ان لا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله .... التوبة ٩٧  
والمتبادران هذ الوصف مما يتصل بما كان عليه الاعراب من جفاء  
طبع وقسوة وجهل وضعف مرونة وقلة صقل وتهذيب . وبالتالي انه صورة  
لاخلاق وطبائع البدو بصورة عامة واخلاق وطبائع الاعراب في عصر النبي  
(ص) وبيئته بصورة خاصة .

وليست هذه الآية هي الوحيدة في صدد طبائع الاعراب في عصر  
النبي (ص) وبيئته . ففي سورة التوبة ايضاً الآية التالية :

ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم  
دائرة السوء والله سميع عليم ....

٩٨  
حيث تصف طبيعة الحذر والتربص فيهم ، وبطوء الاستشعار بالايمن  
والصدور عنه في أعمالهم .

ولقد كان من الاعراب منافقون كما تبدل على ذلك الآية التالية من سورة التوبة ايضاً:  
ومن حولكم من الاعراب منافقون ....

والمبتدأ ان نفاق الاعراب متصل بطبائهم وأخلاقهم (١) التي أشرنا

(١) مما لا شبهة فيه ان ابن خلدون حينما وصف العرب بما وصفهم به في مقدمته انما قصد الاعراب منهم ، ولا يمكن ان يكون قد قصد بوصفه العرب مطلقاً بدوهم وحضرهم ؛ لا سيما والاستعمال كان قد فشا في اطلاق كلمة « العرب » على البدو ومنزلهم في البادية ، وهو ما لم يزل فاشياً الى اليوم . والمناسبة هنا سانحة للقول ان ابن خلدون لم يكن على حق حينما وصف العرب بما وصفهم به حتى ولو كان قصده أعرابهم وليس العرب مطلقاً كما هو الأرجح ألا اذا كان اراد بوصفه الاعراب في طورهم البدوي . لأن البداوة طور من أطوار الانسانية وليست جبلة لجيل من الناس او جنس البشر ، ولأنه لا بد من ان يكون قد رأى وعلم ان كثيراً من البدو العربي قد تحضروا بعد الفتح الإسلامي ومضروا الامصار ، وشاركوا في بناء السلطان العربي والحضارة العربية ، ولم يعد يمكن ان يظل ما يوصف به الاعراب من جفاء وغلظة طبع وجهل وميل الى التخريب وعداء للاستقرار والنظام عالقاً بهم . وهذا ليس شأن العرب وأعرابهم خاصة بل هو شأن بني الانسان عامة . فكل أمة وقبيل قد عاشوا في أول امرهم بدواً متنقلين في الفيافي والجبال والاعراج والمغاور على الصيد والكلاء وتربية المواشي لا يعرفون الاستقرار ولا يطيقونه ، خشناً في معيشتهم ، جفاءً في طبائهم ، ضعفاء في مداركهم ، جهلاء لما يحيط بهم ، نفورين من القيود والتنظيم ، ثم تدرجوا فزرعوا واستقروا وتحضروا وتطوروا في الحياة واصبحوا مترفين ناعمين دمثين رقيقين ، واستطاعوا ان يشيدوا الممالك وان يعضو النظم ، وان يدركوا قيمة العمران ومدى الحضارة . والعرب كانوا كذلك في كثير من انحاء جزيرتهم قبل ان يخرجوا منها ويتخذ بعضهم المدن مسكناً ، ثم من بعد ان خرجوا قبل الاسلام وبعده . وهؤلاء الأثوريون والكلدانيون والفنيقيون والكنعانيون الذين خرجوا قبل الاسلام بقرون عديدة ، ثم هؤلاء —

اليها أكثر مما هو متصل بالاسباب المحلية التي نشأ عنها نفاق المنافقين في المدينة . حيث هذا كان منهم استجابة لبعض زعماء فاتتهم المنافع العظيمة من هجرة النبي (ص) وانتشار دعوته ورسوخ قدمه (١) وحيث كان لتحرير اليهود في المدينة ودسهم اثر كبير فيه (٢) .

وفي سورة الفتح آيات تلهم ما كان عليه البدو من طبائع متصلة بما ذكرناه :  
سيعول لك الخلفون من الاعراب شغلنا أموالنا واهلونا فاستغفر  
لنا يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً  
ان اراد بكم ضرراً او أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً .  
بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهلبيهم أبداً وزيّن ذلك  
في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً . . . . . ١١ - ١٢  
حيث تصف حذرهم من التورط حينما يكون الخطر هو الغالب ؛

---

— اليمانيون الأولون الذين بقوا في بلادهم التي عرفت بالسعيدة كانوا بدواً  
أولاً ومتصفين بكل صفات البدو ثم تحضروا وصارت لهم صفات الحضرة  
وعاداتهم واخلاقهم ومداركهم وبعد أفقهم ومعايشهم وعلومهم وقوانينهم ،  
لم ينقصوا عن غيرهم في ما أخذه هذا الغير من طريق الحضارة ومدارجها  
على اختلاف في الدرجات ، نشأ عن اختلاف في طبيعة الاقليم والتقدم والتأخر  
في السير في طريق التطور الانساني . ومن الأدلة على هذا انه كان في  
عصر النبي (ص) وبيئته كما كان في بلاد اليمن في عصر النبي (ص) .  
وقبله عرب حضر لهم كثير من صفات الحضرة ووسائلهم وعرب بدو .  
وكانت صلة الحضرة منهم وثيقة واوشاجهم قائمة بالبدو في ذات الوقت .  
(١) مما ورد في ابن هشام ان الخزرج كانوا يزعمون تتويج رئيسهم  
عبد الله ابن ابي عليهم ملكاً قبل قدوم النبي فتعطل هذا بأسلام الانصار  
وهجرة النبي (ص) فساق هذا عبد الله الى النفاق وتولى زعامة الحركة . .  
(٢) في القرآن آيات كثيرة ؛ وقد وصفت آية البقرة (١٣) اليهود  
بأنهم شياطين المنافقين اي الموسوسون لهم . . . . .

فأن الآية نزلت بمناسبة دعوة النبي (ص) الأعراب المسلمين الى الأشتراك مع سائر المسلمين في زيارة الكعبة ، وهي الزيارة التي انتهت بصلح الحديبية فأرأوا ان النبي (ص) والمسلمين سيتعرضون لمناوأة وحرب شديدة يغلبون فيها ، وقد لا يرجع منهم أحد ففضلوا التخلف .  
« وفي السورة نفسها آية تصف حرصهم على الكسب حينما يكون مأمون العاقبة :

« سيقول لك المخلفون إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون ان يبذلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا . . . » ١٥  
حيث كان النبي (ص) مزمماً على غزو خيبر ، وكان المتبادر ان تكون الرحلة سهلة مضمونة الربح مأمونة العاقبة .

وفي سورة الحجرات آية نزلت بمناسبة جفاء سلوكي صدر منهم حيث جاء وفد بدوي الى المسجد ، فلما لم يجد النبي (ص) لم يبال ان أخذ يناديه من وراء حجراته بأسلوب جاف ناب عن الذوق :

« ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . . . » ٤  
وهذا متصل بطبعهم الذي أشرنا اليه . وفي السورة نفسها آيات أخرى تذكر منهم على النبي (ص) بأسلامهم في حين كان اسلامهم سطحياً ولم يصبح بعد ايماناً قلبياً :

١ — قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الأيمان في قلوبكم . . . ١٤

٢ — يمتنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي أسلامكم . . . ١٦  
وهذا متصل كذلك بطبعهم المذكور .

على ان هناك آية تصف فئة من الأعراب قد نفذ الأيمان الى قلوبها وأخذت أعمالها تصدر عنه كما ترى :

« ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات

كما يدل على ان طبائع البدو لم تكن متحجرة ، وان أثر الصقل الإسلامي لم يلبث ان أخذ يبدو عليهم كما هو متسق مع طبائع الأمور .

### الخصية العربية

- ١٤ -

قد يكون من البدائه ان يقال ان أكثرية سكان الحجاز عربية . ومع ذلك فان مما لا يخلو من فائدة ان نذكر ان هذه الحقيقة مما تضمنت النصوص القرآنية تقريره ، فقد كررت الآيات كلمة « العربي » في صدر تقرير لغة القرآن ، وقررت ان الرسول الذي يرسله الله انما يرسله بلسان قومه ، وان الله انما انزل القرآن عربياً لقوم يعاصون ، ولينذر به أم القرى ومن حولها ، وانه يسره بلسانه لعلمهم يتذكرون به ، وانه لو نزله بلسان أعجمي - غير عربي - لما فهموه ، ولا اعتراضوا وطلبوا تفصيله بالعربية كما تري في الآيات التالية :

١ - إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ... يوسف ٢

٢ - وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ... الرعد ٣٧

٣ - وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... ابراهيم ٤

٤ - نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان

عربي مبين . وانه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية ان يعامه علماء

بني اسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به

مؤمنين ... الشعراء ١٩٣ / ١٩٩

٥ - كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعاصون ... فصلت ٣

٦ - ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي

وعربي ... فصلت ٤٣

٧ - وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها

الشورى ٧

٨ - فأما يسرناه بلسانك لعلمهم يتذكرون .. الدخان ٥٨  
فهذه الآيات كما ترى تقرر صراحة وضحناً ان القوم الذين أرسل الله  
اليهم النبي ( ص ) عرب وانه منهم .

- ١٥ -

على أن هناك شيئاً مهماً نحب ان نضيفه الى بديهة عروبة أكثر اهل  
الحجاز وهو ان هذه الجنسية العربية لم تكن شيئاً قاصراً على أهل الحجاز  
بل كانوا من ضمن كيان عام عربي الجنس مستقر ومفهوم المدى في عصر  
النبي ( ص ) يشعر به العرب أنفسهم ، ويشمر به غير العرب من الأمم  
المجاورة لجزيرة العرب ويعرفونه ، ويشتمل على أهل الجزيرة العربية أولاً  
بما فيهم أهل الحجاز ، وثانياً على العرب الذين هم في أطراف الجزيرة  
الشامية اي في البلاد الشامية والمراقية ، حيث كانت فريق منهم غادياً  
ورائحاً ، وفريق آخر مستقراً ، وفريق بادياً يسكن بوادي الشام والعراق  
وفريق متحضراً يسكن المدن والقرى ، ويتمتع بالملك والسلطان ، ووسائل  
الحياة الناعمة المترفة ، وله الصلات القوية البارزة مع الساسانيين في العراق  
وفارس والرومانيين في الشام . وفي القرآن ما يمكن الاستناد اليه في تأييد  
هذا الذي تقررره .

ففي آيات ذكرت فيها كلمتا « قوم » و « أمة » موجهتين الى قوم  
النبي ( ص ) وامتته وهم العرب كما ترى في مايلي :

١ - وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون  
الرسول عليكم شهيداً ... البقرة ١٤٣

٢ - وكذب به قومك وهو الحق قل نزلت عليكم بوكيل . الانعام ١٦

٣ - وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه . ابراهيم ٤

٤ - وانه لذكر لك ولقومك ولسوف تسألون . الزخرف ٤٤

واذا قيل ان كلمتي « قوم » او « أمة » قد لا يفيدان معنى الكيان العام  
الشامل للجنس العربي لا سيما في ذلك العهد ، ولانها قد توجهان الى قبيل

او جماعة او ملة او اهل بيئة ما ، وان الآيات قد عنت اهل مكة  
ففي القرآن تأييد آخر وذلك هو الآيات التي وردت فيها كلمات الاعجمي  
مطلقة على غير العربي ، وهو التفريق الذي جرى عليه الاستعمال بصورة  
واسعة وعامة بعد الاسلام ، بحيث اعتبر كل ما هو غير عربي جنساً ولغة  
اعجمياً ، وفي سورة النحل آية في هذا الصدد وهي :

« ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشرٌ لسان الذي يلحدون اليه

اتجمي وهذا لسان عربي مبين ... ١٠٣

بالإضافة الى آيات الشعراء ١٩٣ - ١٩٩ وفصلت ٣٤ التي نقلناها  
قبل قليل . فاستعمال هذا التعبير في المعنى الذي اشرنا اليه في آيات مكة  
والآيات - جميعها مكة - دليل على ان هذا الاستعمال وهذا المعنى كانا  
شائعين مفروحين قبل البعثة ؛ وشيوعها برهان قوي على استقرار معنى  
اسم « الامة العربية » او « الجنس العربي » وشموله لمن كان يتكلم باللغة  
العربية في الجزيرة ، ولم ينتسب اليها ويتصل بها في المنشأ والانساب  
والارحام من العرب الذين كانوا في اطراف الجزيرة ومهاجرها حتماً  
وسواء منهم المتحضرون او البدو .

وإذا كان ليس في الامكان تحديد وقت هذا الاستقرار في فهم العرب  
وغير العرب كون العرب امة او جنساً واحداً فاننا لا نشك بانه يرجع  
الى زمن غير قصير قبل البعثة ؛ لان تعبير « العرب » . اذا كان اطلق في  
اول الامر على بعض قبائل العرب في بعض مساكنهم فانه لا يمكن ان  
يكون قد اصبح تسمية عامة شاملة لكل العرب ، ومفرقة لهم عن الاعاجم  
- غير العرب - كما جاء في القرآن الا قبل نزوله بمدة طويلة (١)

---

(١) إذا اردنا ان نستند الى روايات التاريخ التي ذكرت ان الرومانيين  
حينما استولوا على « بطوا » او بلاد الحجر كما نظن ان القران قد سماها  
قد سموها « الولاية العربية » امكننا ان نقول ان تسمية « العرب »  
واطلاقها على العرب او فريق ممن ينتسب بالنشأة اليهم يقتضي ان يرجع الى -

هذا : وزيد ان بحث في موضوع قرآني يتصل باصل سكان بيثة النبي (ص) . ففي القرآن آية مكية فيها اشارة الى حادثة اسكان ابراهيم (ص) بعض ذريته في منطقة البيت الحرام اي مكة ؛ وهي آية سورة ابراهيم (٣٧) التي نقلناها في مبحث سابق ؛ وفيه كذلك آيات تحتوي اشارة الى حادثة بناء ابراهيم واسماعيل (ص) الكعبة ، وفيها دعاؤها بجبل البيت آمناً ويجعل ذريتها امة مسالمة ، ويبعث رسول منهم اليهم ثما يقوم قرآن قوية على ان المقصود بالدعاء هم العرب :

« واذ جعلنا البيت مثابةً للناس وامناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى

— قرون كثيرة قبل الاسلام ؟ لان تسمية الرومان هذه كانت قبل سبعة قرون وطبعي ان يكون تعبير « العرب » معروفاً ومطلقاً على هذه البلاد وسكانها قبل ذلك بامد غير قصير ايضاً .

اما تسمية بطرا باسم بلاد الحجر في القرآن فاننا نستند فيها الى ماجاء فيه من وصف الحجر وصفاً مطابقاً لوصف بطرا كما ترى :

« ولقد كذب اصحاب الحجر المرساين . ولقد آتيناكم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا يختمون من الجبال بيوتا امنين . . . سورة الحجر ٨٠-٨٢ » وبطرا هي مدينة او مساكن منحوتة في الجبال لاتزال اثارها العجيبة قائمة الى اليوم في وادي موسى في بقاء شرق الاردن . والتسمية اعجمية ومعناها الحجر او الصخر ووصف آيات القرآن مطابق لآثار بطراء . وفي جنوب هذه الناحية « مداين صالح » والنبي الذي ارسل الى اصحاب الحجر او الصخر او شمود هو النبي صالح (ص) فالمنطق يؤدي الى تأييد كون بلاد الحجر المذكورة في القرآن هي نفس بلاد الانباط التي استولى عليها الرومان وسموها الولاية العربية ، وكون الوصف هو وصف عاصمتها التي سماها الرومان « بطرا » لانها منحوتة في الصخر وان تكون الكلمة ترجمة لكلمة « الحجر » التي يحتمل ان تكون هي الشائعة في ذلك العهد .

(١) وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع  
السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من  
الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فآتممه قايلاً ثم  
اضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل  
ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة  
مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا  
وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم  
انك انت العزيز الحكيم . « البقرة ١٢٥ - ١٢٩

وفيه آية توجه الخطاب الى المسلمين الذين كانوا اذ ذاك هم العرب  
من بيئته النبي (ص) فقط تذكر ابراهيم (ص) بصفته ابيهم :

« وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين

من حرج ملة ابيكم ابراهيم . الحج ٧٨

هذا عدا ما فيه من آيات كثيرة أخرى سنوردها في الفصول الأخرى  
عن صلة ابراهيم (ص) بالكعبة وتقاليد الحج وملته ومواقفه لم ترد في النوراة .  
واسلوب الآيات القرآنية مما نقلناه وما سوف ننتله يلهم ان محتوياتها  
ليست غريبة المعنى والموضوع على اسماع الذين تتلى عليهم ؛ وتسوغ القول  
ان أهل بيئته النبي (ص) كانوا يعرفون انهم ينتسبون بالابوة الى ابراهيم  
واسماعيل (ص) ويتداولون ذلك جيلا بعد جيل ، وان ما قاله بعضهم  
من ان ذلك انما كان من تقارير قرآنية مدنية وبعد احتكاك النبي (ص)

---

(٢) مقام ابراهيم هو مكان في فناء الكعبة ما يزال معروفاً بالتواتر  
الذي لم ينقطع . وفي سورة آل عمران آية جاء فيها « ان اول بيت وضع  
للناس الذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن  
دخله كان آمناً . ٩٦-٩٧ » وقد ذكر المفسرون والرواة أن هذه  
البيئات هي حجر فيه اثر قدم تمارف العرب على انها اثر قدم ابراهيم (ص)  
حيثما كان يرفع عليه قواعد الكعبة .

باليهود هو قول جزاف ؛ ولعل من الأدلة الحاسمة على هذا ذكر القرآن  
مقام ابراهيم وبيئته في البيت الحرام ، لان هذا متصل بما كان معروفا  
ومتداولاً بين العرب قبل نزوله .

ولسنا نفي نفي احتمال كون اليهود هم المصدر الاول لما كان يتداوله  
العرب من قضية انتسابهم بالبئوة الى ابراهيم واسماعيل ( ص ) ، فنحن نرجح  
هذا ، لان التوراة هي اقدم مدونة ذكرت ابراهيم واسماعيل ( ص ) وفيها  
قصة ولادة اسماعيل ( ص ) وطرده مع امه الى فاران كما فيها قصة تودرية  
اسماعيل وانتشارها ، وتسميتهم بالاسماعيليين ، وفيها قرائن في مناسبات  
عديدة على ان العرب كانوا ممن تعينهم هذه التسمية ايضاً ، وانما الذي  
نفى القول بان القرآن لم يقرر نسبة بنوة العرب لابراهيم واسماعيل ( ص )  
ونسبة صلاتهم بالكعبة والحج الا بعد الهجرة وبعد اتصال النبي باليهود ،  
كانما يعني به ان العرب كانوا في جهل من هذا قبل البعثة .

### اللغة العربية واللغة القرآنية

— ١٧ —

واذا كان من تحصيل الحاصل ان يقال ان لغة اهل الحجاز — اي  
اكثرية سكانها الساحقة — هي العربية ، وان هذا صريح في النصوص  
والملمحات القرآنية فان من المهم ان يضاف الى هذا بهذه المناسبة الحقائق التالية :

اولاً — ان اللغة القرآنية بوجه عام هي اللغة التي كان يتفاهم  
وتخاطب بها اهل الحجاز في عصر النبي ( ص )

ثانياً — ان هذه اللغة لم تكن لغة اهل الحجاز فقط ، بل كانت  
اللغة العامة المشتركة التي كان يتفاهم العرب بها في جميع انحاء الجزيرة  
واطرافها ومهاجرها القريبة من حيث الاجمال . وبكلمة اخرى ان اللغة  
القرآنية التي يصرح القرآن انها لغة النبي ( ص ) وقومه هي اللغة التي  
كانت شائعة ومفهومة في عصر النبي ( ص ) بين العرب حضرم وبدوهم ،  
قاصيهم ودانيهم ، وليس بين عرب الحجاز فقط . فكما ان تسمية «العرب»

كانت تشمل جميع العرب في الجزيرة وخارجها وكان هذا اصراً مفهوماً المدى ، وكما ان العرب كانت تجمع بينهم جنسية واحدة هي « العربية » فكذلك كانت اللغة العربية القرآنية لغة جميع العرب في الجزيرة وخارجها وفي القرآن مستند وتأييد لهذا القول ايضاً . ففيه عدا الآيات التي اوردها آيات عديدة اخرى تلهم انها اكثر شمولاً واطلاقاً :

- ١ - وكذلك ازلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون او يحدث لهم ذكراً . طاهها ١١٣
- ٢ - ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون . الزمر ٢٨-٢٩
- ٣ - وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لتنذر الذين ظلموا وبشري للمحسنين . الاحقاف ١٢

ولقد كان من المتواتر الذي بلغ حد اليقين :

اولاً - ان النبي (ص) كان يتصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية ، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تقف على مكة في المواسم والاسواق ، ويتحدث اليهم ويتلو عليهم آيات القرآن ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال ؛ ومن المتواتر ان مواسم الحج واسواقه لم تكن قاصرة على اهل الحجاز ؛ وخاصة قبيل البعثة النبوية ، بل كان يفد اليها العرب من الحجاز وغيرها من غير الحجاز ايضاً ؛ ومنهم نصارى العرب من تناب وايد وكاب وغيرهم

ثانياً - ان وفود العرب مشركين ونصارى ومجوساً كانوا يقدون (ص) الى المدينة بعد الهجرة النبوية . ولا سيما بعد انتصاراته وانتشار اسمه وكنيته من اليمن ونجد والاحساء والبحرين والعراق والشام وفلسطين بل ومن حضرموت ؛ فكان النبي (ص) يتلو عليهم آيات القرآن ، ويتخاطب معهم هو واصحابه الحجازيون - المهاجرون والانصار - بلغتهم التي هي القرآن بصورة عادية وطبيعية ، وانه كان يرسل معهم قراء من

كبار صحابته الحجازيين ليعلموهم القرآن ، ويفقهوهم في الدين ، ويثولوا امر القضاء بينهم ، وجباية الزكاة منهم وتوزيعها على فقرائهم ، وانه كانت تكتب لهم الرقاع واليهود والوصايا والتشريعات بنفس هذه اللغة ؛ ولم ترد رواية ما تفيد انه كان تراجمة بين النبي (ص) وبينهم (١) .

ثالثا - انه كانت اتصالات مستمرة بين اهل الحجاز من ناحية وبين العرب في انحاء الجزيرة الاخرى وفي بلاد الشام والعراق ، بدوهم وحضرهم قبل البعثة ؛ وسواء في مواسم الحج في الحجاز ، او في رحلات التجارة وغيرها الى اليمن والعراق والشام من ناحية ثانية ؛ وانهم كانوا يتفاهمون ويتخاطبون بلغة واحدة ومادام الحجازيون طرف في هذا فان لغتهم في هذه الاتصالات هي اللغة الحجازية وهي اللغة القرآنية هذا من جهة ؛ ومن جهة ثانية فقد ورد في القرآن تعبير « اعجمي » لغير اللغة العربية مقابل تعبير « عربي » للغة العربية مما اوردها سابقا فهذا الجزم في اعتبار وتسمية اللغات غير العربية « اعجمية » يؤيد أن اللسان الذي كان يتكلم به العرب هو واحد غير متعدد اجمالا وهو لغة القرآن مادامنا نعرف معرفة يقينية انها هي لغة النبي (ص) واهل بيئته . ولو كان للعرب في عصر النبي (ص) لغات عديدة فهاتغار جوهرية لما كان هذا الجزم . وما روي عن انه كان لبعض القبائل بعض التعابير والاستعمالات والمصطلحات والحروف والاهجية المنيرة بعض الشيء للغة قريش او اللغة القرآنية ليس من شأنه ان ينقض ما نقول او يقف دليلا على وجود تغاير في لغة العرب في عصر النبي (ص) يمكن ان يحتمل معنى تغاير لغوي كبير او يحتمل تعبير « لغات متباينة » كما نفهمه من تباين اللغتين العربية والسريانية اللتين هما شقيقتان في الاصل او ما يقرب من ذلك .

واننا لنستطيع ان نقرر ان كل كلمة جاءت في القرآن وكل معنى ورد فيه وكل تعبير استعمل فيه حقيقي او مجازي وديني او اجتماعي او تاريخي او اقتصادي او

(١) ونبه على ان هذا ينطبق على اهل اليمن ؛ وان الذين قالوا ان لغة اليمن

في عصر النبي (ص) على الاقل كانت غير لغة الحجاز قد وقعوا في الوهم .

معاشي او علمي او فلسفي كان العرب يفهمونه ويستعملونه من حيث الاجمال ، وانه لا يعقل ان تكون فيه كلمات او تعابير لم ينطق بها العرب او لم يستعملوها قبل نزوله — بقطع النظر عن السعة والضيق — بعد تلك النصوص القرآنية القاطعة ، ولا سيما بعد تعبير « أعجمي » لغير اللسان العربي مقابل « عربي » للدلالة على اللغة العربية وكذلك بعد الشواهد والبراهين التي اوردناها .

## — ١٨ —

وما نقل عن ابن خالويه من ان العرب لم يعرفوا او يستعملوا كلمة فاسق او مافق غيره عن كلمة النفاق او غيرها عن مافي القرآن من كلمات اعجمية ترد لأول مرة فيه لا يمكن ان يعقل ولا يمكن بالتبعية ان يصدق . ويكفيك ان تعرف ان كلمة الفسق ومشتقاتها قد وردت في نحو خمس وخمسين آية مكية ومدنية وان كلمة النفاق ومشتقاتها قد وردت في نحو ثلاثين آية من جملتها آية مكية لتعرف تفاهة مثل هذه الاقوال وقيمتها . يضاف الى هذا كله طبيعة مهمة النبي ( ص ) التي تقوم على مخاطبة طبقات الناس والقبائل وتلاوة القرآن عليها مما لا يمكن ان يتسق مع عقل ومنطق وحكمة ان يكون ما يتلوه عليهم ، وهو دعامة نبوته ومعجزتها الكبرى بغير اللغة التي يفهمونها بتركيبتها ومفرداتها بل ولا في مستوى اعلى كثيراً من مستوى افهام المتوسطين منهم . وهذا نقوله تفصيلاً لما قاله بعض القدماء من ان لغة القرآن كانت اعلى من مستوى الافهام ، ولما قاله بعض المحدثين من المستشرقين وغير المسلمين خاصة من أن الذين آمنوا انما آمنوا لفصاحة القرآن اللغوية وسمو طبقته ، حيث كانت هذه الصفات فيه مما تبهر سامعيه ، ونذكر الذين قالوا القول الاخير خاصة بأن من المؤمنين الاولين في مكة من قد امن بالنبي ( ص ) على اثر الدعوة وقبل ان تُعد الآيات او السور الصغيرة النازلة على الاصابع ، وان جملهم قد امن قبل منتصف العهد المكي ، وان القرآن يذكر ان الكتابيين الذين آمنوا بالقرآن والنبي ( ص ) انما امنوا لما فيه من الحق والروحانية كما ترى في الآيات التالية :

٢ — واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما

صرفوا من الحق يقولون ربنا آمننا فأكتبنا مع الشاهدين المائدة ٨٣  
 ١ - وأن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل  
 اليهم خاشعين لله لا يشترون آيات الله ثمناً قليلاً ... آل عمران ١٩٩  
 ٣ - «والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ... الرعد ٣٦  
 ٤ - « قل آمنوا به اولا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا  
 يتلى عليهم يحزون للاذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد  
 ربنا لمفعولاً .... الاسراء ١٠٧ / ١٠٨  
 ٥ - الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم  
 قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ...

القصص ٥٢ / ٥٣

وان اكثرية المكيين الساحقة ثم اكثرية الحجاز الساحقة ثم اكثرية  
 العرب الساحقة قد ظلت جاحدة طيلة العهد المكي واكثر العهد المدني ،  
 وقد سألخ النبي (س) ثلاثة عشر عاماً في مكة يتلو القرآن على أهلها  
 وعلى العرب وأسلوب القرآن المكي خاصة شديد الروعة ليعرفوا ما في قلوبهم  
 من وهن .

- ١٩ -

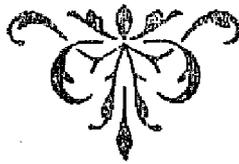
وواضح ان ما نقوله ليس فيه ما يقلل من سمو طبقة لغة القرآن  
 وفصاحته وبلاغته الرائعة النافذة التي لا يمكن ان تحمل كلاماً ولا ريباً ،  
 كما انه لا يمنع ان يكون في القرآن مفردات غير عربية أو غير قرشية  
 اللهجة ، بل نحن نعتقد بوجود ذلك ، غير ان بما لانشك في كونه الحق  
 هو ان الكلمات العربية قد عربت وأصبحت جزءاً من اللغة العربية قبل  
 الاسلام ، وان الكلمات او اللهجات غير القرشية قد دخلت في اللغة  
 القرشية التي اصبحت لغة القرآن قبل الاسلام ايضاً ، وانه ليس من شأن  
 هذا وذلك ان يتمتع معها على السامعين من غير قريش تذوق وفهم المفردات  
 التي من هذا القبيل او مدلولاتها اجمالاً او تفصيلاً ، وهذا كذلك مع

التسليم بأحتمال وجود طبقات من العرب في كل بيئة في عصر النبي (ص) حتى من القرشيين أنفسهم لم تكن مداركها تصل الى فهم كل معاني القرآن او لم تكن تستعمل او لم تكن تسمع بجميع الفاظ وتعابير وتراكيب القرآن . ومع التسليم ايضاً بأحتمال من كان يتكلم بلهجات غير لهجة القرآن من قبائل العرب بل ومتحضرينهم من سكان المناطق البعيدة عن مكة ، او يستعمل تعابير والفاظاً وحروفاً ومصطلحات ليست من تعابير والفاظ وحروف ومصطلحات اللغة القرآنية مما هو طبيعي متسق مع بدائة الامور ، وليس مما يتناقض مع مدى وجوه ما تقرره ايضاً .

وكما قلنا انه ليس من السهل او الامكان تحديد الوقت الذي اصبح اسم العرب فيه عاماً مشتركاً ومستقراً للجنس العربي فاننا نقول هنا انه ليس من السهل والامكان تحديد الوقت الذي أصبحت فيه اللغة العربية القرآنية لغة عامة ومشتركة ومستقرة لجميع العرب . ولكن من الحق ان نقول انه ليس من الضروري ان يرجع هذا الوقت الى ذلك الامد الطويل الذي يقتضى ان ترجع اليه تسمية « العرب » على ما شرحناه في البحث السابق . فان اللغة لا يمكن ان تكون لغة تخاطب عامة مشتركة بين سكان الانحاء والبيئات المتباعدة تباعداً شاسعاً الا بعد تقارب وتواصل عامين ومستمرين وهو مالا سبيل الى التيقن منه الى زمن طويل جداً . ولكننا نستطيع ان نقول ان هذا الاشتراك قد اخذ يقوى ويستقر قبل البعثة النبوية بعوامل تلك النهضة التي نشطت آنذاك ، والتي تلمس في مظاهر وتقاليد كثيرة في حياة العرب ، والتي نرجح انها كانت رد فعل لغزو الأقباش لليمن ثم لاحتجاز . وانه ان المعقول ان يكون لهذه الحركة وللأسفار التي تزايدت بعدها بين مختلف انحاء الجزيرة وبين هذه الانحاء واطراف الجزيرة في الشام والعراق ، ولاشتماد ارتباط العرب بالبيت الحرام والحج ، وللأسواق التي كانت تقام في مواسم الحج ، والتي كان يفد اليها والى الحج من بعدها كثير من العرب من مختلف الانحاء في ظل

هدنة الاشهر الحرم العامة أثر أولاً في انتشار اشتراك اللغة وتوحيدها  
وثانياً في تصفيتها وتهذيب حواشيتها حتى وصلت في عهد البعثة النبوية الى  
الطبقة السامية التي نزل بها القرآن الكريم .

على ان الاشارة الى العربية والمعجمية ، وما يمكن ان تحويه من  
مفهوم اطلاق العربية على اللغة التي كان يتكلم ويتفاهم بها العرب على  
اختلافهم ، وتفريقها عن اللغات الأعجمية التي كان يتكلم ويتفاهم بها غير  
العرب يمكن ان تساعد على القول بأن سيادة اللغة القرآنية ترجع الى  
أمد غير قصير قبل البعثة اولا ، وعلى القول بأنه لا يكون مجال للاستغراب  
ولا الانكار اذا كنا نرى الشعراء الجاهليين من عدنانيين وقحطانيين ، ومضريين  
وربيعيين ينظمون أشعارهم بلغة واحدة ثانياً ، لاسيما اذا كانت حياة هؤلاء  
الشعراء لاتذهب في القدم كثيراً كما هو المروى عنهم .



# الفصل السابع

## الحركة الاقتصادية والمعاش

نشاط مكة التجاري وسعته — اسفار تجار مكة الى مختلف الاقطار — اثر الكعبة والحج في نشاط مكة التجاري — نشاط المدن الاخرى التجاري — الربا في الحجاز — النقد — الذهب والفضة — الأعداد والحساب — المكييل والأوزان — النشاط الزراعي وسعته — اثر اليهود المحتمل فيه — النشاط الصناعي — آيات القرآن في صدده — دلالة الآيات على وجود صناعات كثيرة وصناع متنوعين في الحجاز — اثر الجاليات الاجنبية في هذا النشاط — نصيب المرأة في النشاط الاقتصادي — معاش العرب — ترف بعض الطبقات نتيجة للنشاط الاقتصادي — دلائل وقرائن قرآنية — الأنعام وخطورتها في معاش العرب — عناية القرآن بها ودلالاتها — اشتغال الحضر والبدو بها — الصيد واثره في معاش العرب — استلهايات قرآنية في فنون الصيد وعادات العرب فيه — ما تلهمه الآيات في الاطعمة ومحرماتها وانواعها — ما تلهمه الآيات عن الشراب والخمر وانواعها ومجالسها — ما تلهمه الآيات عن عادات الميسر واثره — ما تلهمه الآيات في السمر والقناء — ما تلهمه الآيات في المساكن والاثاث — ما تلهمه الآيات في الكساء والازياء — ما تلهمه الآيات في الحلي والتبرج — ما تلهمه الآيات في الاسلحة وفنون الحرب .

## الحركة الاقتصادية

— ١ —

ان ما ذكرناه في الفصل السابق من مظاهر الحركة الاقتصادية انما كانت بسبيل وصف المدن الحجازية ومظهرها ولم يكن من شأنه الا لمام بهذه الحركة المما كافيًا كما هو واضح ؛ وهذا ما سوف نحاوله في هذا البحث .  
ان من البديهي ان لا تشذ مدن الحجاز وقراها عن حياة المدن والقرى الاستقرارية التي تتحمل الاعمال الدائمة وتتلازم مع الاعمال الزراعية والصناعية والزراعية .

والواقع ان في القرآن آيات كثيرة يستطاع الاستدلال بها على اشتغال اهالي الحجاز وقراه بهذه الاعمال اولا ، وعلى المدى الذي وصلوا اليه فيها .

## النشاط التجاري

— ٢ —

فاهل مكة لم يستطيعوا ان يتعاطوا الاشغال الزراعية لجذب تربتهم وشح مياههم ، فاستعاضوا عنها بالضرب في مناكب الارض ، وشد الرحال للاسفار التجارية في الصيف والشتاء والبر والبحر ، يتوسطون في نقل السلع ومبادلتها بين الاصقاع الجنوبية والشامية والشرقية اي اليمن والشام والعراق وفارس ومصر والحبشة وسواحل افريقية والهند من جهة ، ويشترون ما تحتاج اليه بيوتهم من السلع والاروض من جهة ثانية (١) . والذين لم يكونوا يرحلون كانوا يشاركون الراحلين ، او يستأجرون من يسافر لحسابهم ويحرجهم ، وكانت هذه الحركة غير قاصرة على الاغنياء ، بل كان يساهم فيها المتوسطون ايضاً . فسورة قريش على ايجازها تنطوي على اشارة الى ما كان من نشاط اهل مكة العظيم في هذا المضمار اذا ما انعم النظر فيها .

---

(١) أن آية القصص ٥٧ تتضمن اشارة الى هذا المعنى حينما يعمن النظر فيها ايضاً .

والآيات التي استدللنا بها على ما كان لاهل مكة من ثروات تلهم بطبيعة الحال ان هذه الثروات انما توفرت لهم بفضل النشاط الاقتصادي الذي كانوا يقومون به ، والذي كان يتمثل في الدرجة الاولى في الحركة التجارية الدائمة . والآيات التي اوردناها في صدد ذكر المنطقة الساحلية تدل كذلك على نشاط اهل مكة — لانها مكية ولان اول الخطابين بها اهل مكة ولان فيها ملهات باسفارهم البحرية بالذات — التجاري البحري ، ومدى اتساع افقهم في الاعمال والمجازفات التجارية .

واهل من مؤيدات اتساع هذا الافق والنشاط التجاري البحري الهجرة الاولى التي قام بها المسلمون الاولون من مكة الى الحبشة والتي اشير اليها في آيتين من سورة النحل :

١ — والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم في الدنيا حسنة

النحل ٤١

٢ — ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا .

النحل ١١٠

فانه ليس من المعقول ان يهاجر المكيون الى بلد لم يكن معروفا عندهم او عند بعضهم . وهذه المعرفة تدل على ان هذه البلاد كانت من البلاد التي اتصل بها المكيون في اسفارهم التجارية البحرية .

وهناك آيات تدل على اسفارهم الى الجنوب حيث بلاد اليمن وحضرموت ومساكن عاد الاولى ، والى الشمال حيث بلاد ثمود ولوط اي طريق الشام وبلاد الشام والبلقاء وفلسطين ؛ فقد جاء في سورة الصافات :

« وإن لوطاً لمن المرسلين . اذ نجيناه واهله اجمعين . ألا عجوزاً في الغابرين .

ثم دمرنا الآخرين . وانكم لتمررون عليهم مصبحين . وبالليل افلا تعقلون .

١٣٤ — ١٣٨

وخرائب بلاد لوط هي على ضفاف بحيرة لوط في غوراربحا قرب بيت المقدس

وهي المشهورة بخرائب سدوم وعمورة ، والتي مازالت موجودة الى الآن .

وقد جاء في سورة المنكوت :

« وعاداً وعمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم

فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين .

هذا بالاضافة الى صيغة آيات عديدة اخرى تلهم انها تخاطب انساناً يعرفون

معرفة عيان ما يخاطبون به وبالتالي تلهم ان المخاطبين وهم المكينون في الدرجة

الاولى قد زاروا الاماكن والآثار التي تضمنت الآيات الاشارة اليها كما ترى في

الامثلة الآتية :

١ — فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئرٍ

معتلة وقصر مشيد . فلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يفتقون بها او آذان

يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

٤٥ — ٤٦ الحج

٢ — ولقد اتوا على القرية التي امطرت مطراً سوءاً (١) فلم يكونوا يرونها

بل كانوا لا يرجون نشوراً

٣ — اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا

اشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات

فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون .

٤ — الم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في

البلاد . وعمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الاوتاد . الذين طغوا في

البلاد .

٦ — الفجر

ويلفت النظر الى مضامين الآيات حيث تلهم ان الاماكن المذكورة كانت في

بلاد نائية عن مكة وكانت عامرة او سالحة للعمران حيث فيها التصور المشيدة ،

والآثار العمرانية الكثيرة الدالة على القوة والبأس ، والتي كانت تتفوق في عمراتها

وقوتها مدينة مكة تفوقاً كبيراً . ولعل في وصف فرعون بذي الاوتاد دلالة على

(١) المقصود منها خرائب بلاد لوط ايضاً التي كان المكينون يشاهدونها في

رحلاتهم .

مشاهدة عيانية لمصر واهراماتها التي يرجح ان الاوتاد قد عنتها . ولمصر وصف  
آخر هو من اوصافها الدائمة ، ويلهم انه مماشاهده المكيون المخاطبون :

١ — « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم اليس لي ملك مصر وهذه الانهار  
تجري من تحتي افلا تبصرون .  
الزخرف ٥١  
٢ — « فاسر بعبادي ايملا انكم متبعون . واترك البحر رهواً انهم جند مغرقون .  
كم تركوا من جنات وعيون . وزروع وسقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين  
٢٣ — ٢٧ الدخان

### — ٣ —

كذلك هناك آيات يمكن ان يستدل منها على ما كان في وجود الكعبة  
ومناسك الحج في مكة ، وفي هدية الاشهر الحرم من مجال لنشاط اهل مكة التجاري  
او من حافظ قوي لهذا النشاط . منها هذه الآية :

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد  
المائدة ٩٧

حيث تقرر ان الله جعل هذه الاماكن والمناسك والشعائر وسيلة ليقم الناس  
أودهم ، ويقضوا حاجاتهم ومصالحهم ، ويحصلوا على معاشهم ؛ اذ ان كل هذا  
متضمن في جملة « قياماً للناس » اي فيه قوام حياتهم .

واقدم كانت اشهر الحج اشهر حراماً — يحرم فيها القتال — فسكان العرب  
يغتزمون فرصة هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال الى مكة من كل صوب ، وكانت  
تقام بهذه المناسبة قبل ايام الحج وبعده اسواق تجارية في المنفسحات وعند المياه  
القريبة من مكة ، فينزل فيها الحجاج ، ويلبثون اياماً يقضون فيها حاجاتهم ،  
ويتبادلون سلعتهم ، ويبيعون ويشتررون ، ويتعارفون ويتسامرون . وهذا مما يمكن  
ان يستلهم من آيات سورة البقرة الآتية :

« الحج اشهر معلومات فمن فرضن فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال  
في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقوا  
يا اولي الابواب . اليس عليكم جناح ان تبغوا فضلاً من ربكم . ١٩٧ — ١٩٨

وقد روى المفسرون والرواة ان ابن عباس كان كلما قرأ هذه الآيات الحق  
جملة « في المواسم » بمد كلمة « ربكم » كأنما كان يفسر المقصود بها حتى ظن ان  
الجملة من نفس الآية . وقد قالوا في تفسير الآيات ان المسلمين تخرجوا من تعاطي  
التجارة والتكسب في اسواق الحج كما كانوا يفعلون قبل الاسلام فسوغت لهم  
الآية الثانية ذلك ، وتعبير « ان تبتغوا فضلا من ربكم » ومشتقاته في القرآن هو كناية  
عن السعي في اسباب الرزق واكتسابه . ولعل الآية الاولى اهتمت المسلمين التخرج ،  
فزلت الآية الثانية بالتسويق والاذن . وعلى كل فالآية تلهم كما قلنا ان الناس  
كانوا يغتنمون فرصة موسم الحج للبيع والشراء ، وبالتالي انه كان يجري في هذا  
الموسم حركة تجارية واسعة . ولعل جملة « ايشهدوا منافع لهم » الواردة في احدي  
آيات سورة الحج :

وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق .  
ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة  
الأنعام فكلاوا منها وأطعموا « البائس الفقير . ثم ليقضوا تقصمهم واثيؤفوا نذورهم  
وليطوفوا بالبيت العتيق ...

٢٧ / ٢٩

تلهم قيام هذه الحركة وانتفاع الناس بها بالإضافة الى ما تلهم الآية الاولى من  
قدوم الناس من كل صوب الى مكة في موسم الحج والانتفاع بمواسمه مما يؤيد  
ما ذكرناه آنفاً .

ولقد روى المفسرون عن ابي عباس في صدد . آية البقرة ( ١٩٨ ) انه كانت  
تقام في اشهر الحج اسواق هي اسواق عكاظ ومجنة وذبي الحجاز ، وجميعها قريبة  
من مكة ، والاخيرة قريبة من عرفات ، وان العرب كانوا يتجرون فيها ، وكانوا  
يقيمون في الاولى عشرين يوماً من ذي القعدة ثم ينتقلون الى الثانية فيقيمون فيها  
ثمانية عشر يوماً ثم يخرجون الى عرفات حيث تقام السوق الثالثة قريبها .

فمن الطبيعي ان يجد أهل مكة في هذه المواسم والاسواق مجالاً واسعاً للتجارة ،  
وان يستمدوا لها في سائر شهور السنة ، يضربون في مناكب الارض براً وبحراً ،  
شمالاً وجنوباً وشرقاً . صيفاً وشتاءً ، ويغتنمون الفرصة فيحملون من بعض البلاد

ما يروج في البلاد الاخرى من السلع والعروض .

— ٤ —

وإذا كنا صرفنا ما تقدم من القول الى مكة وأهلها فلا يعني هذا ان المدن الحجازية الاخرى كانت في عزلة عن ذلك .

فالموالي من حركة البحر حافز ومرتق طبيعياً لاهلها ، ومما لا ريب فيه أن سكانها كانوا يقومون بالاسفار ويضربون في عرض البحار ، وينتفعون بصيدها ، ويستخرجون لآلها وخيراتها ، ويصلون بسفنهم الكبيرة والصغيرة الى الموالي ، والشعور الاخرى في سواحل البحر الاحمر وغيره ، يحملون منها واليها السلع المتنوعة ، ان لم نقل انهم هم الذين كانوا الرئيسيين في هذه الحركات والنشاط . وإذا كانت الآيات المكية في اسفار البحر والتكسب فيها قد عنت أهل مكة فمن باب اولى ان يكون اهل موالي الحجاز ممن شملتهم هذه الاشارات ودخلوا في نطاق النشاط الذي انطوى فيها .

ويثرب والطائف وان كانتا في الاغلب تعيشان على غلات الارض والبساتين والكروم ، وكانت خصوبة التربة تغنيهم عن الضرب في مناكب الارض ابتغاء الرزق بوجه الاجمال ، فان من تحصيل الحاصل أن يقال ان طبيعة كونها مدينتين ، وحوطها القرى والاعراب لا بد من ان تجعل فيها حركة تجارية ، وان يكون فيها كثيرون قد تفرغوا للأعمال التجارية . ولقد وردت آيات مدنية عديدة فيها بعض الاوامر والنواهي والتشريعات مما يمكن ان يلهم انه كان في المدينة حركة تجارية غير ضعيفة ، ولا يرد ان تكون هذه الحركة او القوة فيها قد وجدت بعد الهجرة النبوية كما لا يخفى . واليك الآيات :

١ — ... ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً او كبيراً الى أجله ذلكم أفسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ألا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها .... البقرة ٢٨٣

٢ — « قل يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم .... النساء ٢٩

٣ - « قل ان كان آباؤكم وابنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال  
اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله  
ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره .... ٣٤ التوبة  
٤ - « رجال لا تلهيهم تجارة ولا لهو عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء  
الزكاة ....  
النور ١٦

٥ - « يا ايها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة وأسسوا الى ذكر  
الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا  
في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . واذا رأوا تجارة  
او لهواً أنفقوا اليها وتركوا قائلماً قل ما عند الله خير من اللهو والتجارة والله خير  
الرازقين ...  
الجمعة ١١ / ٩

ولقد كانت المدينة كما قلنا طريق القوافل التجارية المكية ، ومن المستبعد ان  
يبقى تجارها في غفلة عن الاسفار التجارية مثل أهل مكة : ولقد كان في المدينة كما قلنا  
جالية اسرائيلية كبيرة ، ومن المستبعد ان لم تقل من المستحيل ان لا تكون قد  
ضربت بسهم وافر في النشاط التجاري في الحجاز عامة وفي المدينة خاصة ، وسواء  
كان بالرحلات التجارية او في الاسواق المحلية والموسمية ، ومن الراجح ان يكون  
العرب في المدينة قد ساروهم في نشاطهم هذا على اختلاف نواحيه ان لم نقل  
من المحقق .

وشيء مما قلناه ينطبق في ما نعتقد على مدينة الطائف ايضاً ، لاسيما وقد كانت  
هي الاخرى على طريق العراق واليمن التجارية ، وكان أهلها على صلة وثيقة بأهل  
مكة ومنطقتها واسواقها المحلية والموسمية بالنظر الى قرب المدينتين من بعضهما .



ولعل مما يتناسب مع الكلام أن يذكر الربا ؛ لأنه مظهر من مظاهر الحركة  
الاقتصادية والتجارية . ولقد وردت آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على ان أهل  
مدن الحجاز العرب واليهود على السواء كانوا يتعاطونه ، وعلى انه كان راسخاً عندهم  
يعولون عليه تعويلاً كبيراً في تنمية ثرواتهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا . . .  
٢٧٧ البقرة

٢ — يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله واذروا ما بقى من الربا أن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله فإن تبتم فلنكن رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . . .  
٢٧٩ البقرة

٣ — يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم تفلحون . . .  
١٣١ آل عمران

٤ — فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدتكم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . . .  
١٦٠ — ١٦١ النساء

٥ — وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله . . . ٣٩ الروم  
وآية الروم مكية ، فهي والحالة هذه موجهة إلى أهل مكة خاصة ؛ والآيات الأولى مدنية . غير أن من المروي أن آيات البقرة من أواخر ما نزل من القرآن وبعبارة أخرى قد نزلت بعد الفتح المكي ، وإذا صح هكذا فتكون الجملة التي تضمنتها موجهة ضد المرابنين المكيين أيضاً . ومن المروي أن النبي عليه السلام أعلن في حجة الوداع إسقاط ربا عمه العباس وكان من اغنياء وتجار مكة . على أن هذا لا يعني أن لا يكون أهل المدينة العرب قد تعاطوه كما نصت آية النساء بصراحة على تعاطي اليهود له ؛ فهم واليهود في مدينة واحدة ، ولا بد من أنهم اقتبسوه منهم بالإضافة إلى كونه من مستلزمات الحركة الاقتصادية والتجارية التي لم يكونوا في عزلة عنها . وإلى هذا فإن آية آل عمران قد نزلت قبل الفتح المكي ، والنهي فيها موجه إلى المسلمين في المدينة بطبيعة الحال .

والآية ٢٧٩ شديدة الانذار ؛ مما يدل على رسوخ الربا رسوخاً شديداً كما قلنا وعلى كونه يشغل حيزاً خطيراً من حياة المدن الحجازية الاقتصادية . وآيات البقرة وآل عمران قوية أيضاً وتلهيان هذا كما هو المتبادر .

كذلك مما يتناسب مع الكلام ان يذكر النقد الذي كان دارجاً . وفي القرآن بعض آيات في هذا الصدد :

١ - ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يُؤده اليك ومنهم أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً . . . ٧٥ آل عمران

٢ - وشروءه بثمنٍ بخسٍ دراهمٍ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين . . . يوسف ٢٠

فورود اسمي التقدين الذهبي والفضي والمعروفين يقيناً انها اسمان لسكة مضروبة دارجة في بلاد الشام والعراق ومصر ولو في المعرض الذي جاء فيه يجعل من السائع الجزم بالاستدلال القرآني بانها كانا معروفين على هذا الوجه في عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ، وانها كانا دارجين فيما . ومن تحصيل الحاصل ان نقول انها لم يكونا اسمين لنقديين حجازيين مقتبسين اقتباساً ؛ لأنه لم يكن في الحجاز دولة لها سكة خاصة ؛ وان الدارج في الحجاز انما كان الدرهم والدينار الاجنبيين ؛ ولعل في هذا دلالة على مقدار ما كان من سعة الصلاة التجارية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر والعراق ايضاً . وليس من غير المحتمل ان يكون تجار الحجاز وأغنيائهم كانوا يستصنعون لحسابهم في دور الضرب العراقية والشامية الدراهم والدنانير ؛ لاسيما والتاريخ الاسلامي يعلمنا ان هذه العادة كانت جارية في عهد الأمويين والعباسيين .

هذا ولقد ذكر الذهب والفضة في القرآن في مناسبات عديدة . منها ما جاء على سبيل الإشارة اليها كثروة محببة محروص عليها وذلك في آية آل عمران ١٤ التي نقلناها سابقاً . ومنها الآية التالية :

والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب

التوبة ٣٤

اليم . . .

وقد جاء ذكرها مراراً في معرض استعمالها حلياً وأواني في الدنيا وفي الآخرة

كما ترى في الآيات التالية :

- ١ — مُجَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ۝۝۝ الكهف ٣١
- ٢ — فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ۝۝۝ الزخرف ٣١
- ٣ — يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۝۝۝ = ٧١
- ٤ — وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ۝۝۝ الانسان ١٥
- ٥ — وَحَلَّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ۝۝۝ ٢١

فهذا وذاك يدلان على أن أهل بيته النبي (ص) وعصره كانوا ينظرون الى هذين المعدنين كقياس للثروة والغنى والترف، وكانا عندهما من المحبب والمحروص عليه شأنهم في ذلك شأن البيئات المجاورة او بالاحرى البيئات المتحضرة في ذلك اطلاقاً. وهذا ينقض ما قاله بعض الكتاب من أن العرب لم يكونوا يعرفون الذهب او كانت معرفتهم بالفضة اوسع من معرفتهم بالذهب كما هو ظاهر .



ولقد ذكر في القرآن انواع الأعداد من مضاعفات وكسور ، من أحاد وعشرات ومئات وألوف وعشرات الالوف ومئات الالوف ، ومن نصف وثلث وربع وخمس وثلثين وسدس وثمان وعشر ومعشار كما ترى في الآيات التالية :

- ١ — الَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبِصَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ۝۝۝ البقرة ٢٢٦
- ٢ — وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۝۝۝ = ٢٢٧
- ٣ — يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۝۝۝ = ٢٣٤
- ٤ — كَذَلِكِ حَبَّةُ انْبِتَتْ سَمِيعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ۝۝۝ = ٢٦١
- ٥ — قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ ۝۝۝ = ٢٥٩

٦ — أَلَمْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ . آل عمران ١٣٤

٧ — فَانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ۝۝۝ النساء ٣

٨ — يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق

انثيين فلهن مثلنا ماترك وان كانت واحدة فلها النصف ولا بويه لكل واحد منها السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث

فإن كان له أخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ... النساء ١١  
٩ - ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد  
فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصى بها أو دين وإن الربع مما تركتم إن لم  
يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فإين الثمن مما تركتم من بعد وصية  
توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلاً أو امرأة وله أخ أو أخت  
فلكل واحد منها السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث  
من بعد وصية يوصى بها أو دين ... النساء ١٢

١٠ - قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ... المائدة ٢٦

١١ - واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى

واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الانفال ٤١

١٢ - إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مأتين وإن يكن منكم مائة

يغلبوا ألفاً ... الانفال ١١ ٦٥

١٣ - سيقولون ثلاثة رابعهم كلهم ويقولون خمسة سادسهم كلهم رجماً بالغيب

ويقولون سبعة وثامنهم كلهم ... الكهف ٢٢

١٤ - وارسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ... الصافات ١٤٧

١٥ - في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ... المعارج ٤

ونعتقد أن هذا منتهى معروف في العالم إذ ذلك ، وفيه دلالة على سمعة العمل

والأفق والصلوات ؛ كما فيه نقض لما حاوله بعض الكتاب من تعميم جهل العرب

لما فوق الألف بسبب رواية متهافة في حد ذاتها . (١)

(١) الرواية هي ان واحداً من المسلمين سمع النبي يبشر بفتح العراق فاستوهبه

بنت عظيم الخيرة وكانت مشهورة بالجمال فوهبها له . فلما فتحت الخيرة جاء الرجل

إلى القائد وأشهد على هبة النبي فنفذ القائد الهبة . ولما دخل الرجل عاينها وجدها

عجوزاً فقالت له وما تريد من عجوز فدعني اشتر نفسي فوافق فقالت له اطلب ما تريد

فقال الف درهم فنقدت له ولما خرج لامه رفاقه فقال ما علمت فوق الألف شيئاً .

وتهافت الرواية خاصة من ناحية عدم معقولية جهل الرجل لما فوق الألف مع انـ

وفي الآيات التي نقلناها ما يلهم ان العرب كانوا يعرفون الأعمال الحسابية من ضرب وقسمة وجمع وطرح اذا ما أنعم النظر فيها وخاصة في ما جاء في صدر الارث

— ٩ —

اما المكاييل والاوزان التي كانت مستعملة في عمليات البيع والشراء في بيئة النبي ( ص ) وعصره — وعلاقتها بالحركة التجارية معروفة — فان القرآن لم يذكر منها بالتعيين الا القنطار والذراع على غموض في مقدارها كما جاء في آية آل عمران ( ١٤ و ٧٥ ) . اللتين نقلناها سابقا . واية سورة الحاقة التالية :

« في سائسة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » ٢٣

وقد ذكر الميزان والكيل والقسطاس في مناسبات اكثرها جاء في معرض الحث على الامانة والاستقامة في الوزن والكيل كما ترى في الآيات التالية :

١ — واوفوا الكيل والميزان بالقسط . الانعام ١٥٢

٢ — واوفوا السكيل والميزان اذا كتمت وزنوا بالقسطاس المستقيم . الاسراء ٣٥

٣ — واتيتموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . الرحمن ٩

٤ — ويل المطففين . الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم

او وزنوهم يخسرون . المطففون ١-٣

وتدل هذه الآيات على انه كان في بيئة النبي ( ص ) وعصره مكاييل وموازين متنوعة وان لم يمكن الاستدلال على مقاديرها وانواعها بالتحديد ، وانه كانت موازين غير مضبوطة واخرى مضبوطة ، وانه كان يتبع اثناء استعمال الموازين والمكاييل حيل معروفة مشهودة . ولعلنا لا نتجوز اذا قلنا ان تكرر التوصية القرآنية يدل من ناحية ما على فشو هذه الحيل في الاوساط التجارية ، وعلى سعة الحركة التجارية نفسها ايضاً . ومن آيات في سورة القارعة :

---

يبدو انه قد ساح وتقلب في مختلف البلاد وربما كان تاجراً كما ان القرآن المكي قد احتوى ذكراً للخمسين ألفاً والمائة الف ولا يعقل ان لا يكون الرجل قد علم ذلك ، والرواية مروية عن العهد المدني . هذا بالاضافة الى وهن التعميم لأن الرواية نفسها تذكر أن رفاق الرجل لاموه اي انهم لم يكونوا يجهلون لما فوق الالف .

« فلما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأومه

٩-٦

هاوية »

يستلهم ان اساس الميزان عند العرب هو الكفتان كما هو المتعارف في كل مكان وزمان. وقد تمددت الآيات الماثلة في معناها لهذه الآيات فاكثفينا بالذي نقلناه .

## المساطر الزراعي

- ١٠ -

وتقول بالنسبة للاعمال الزراعية في المناطق التي جادت تربتها وغزرت مياهها والتي مرت الاشارة اليها أن الاوصاف التي احتوتها الآيات التي نقلناها سابقاً عن الزروع والسكروم ، والجذات المعروشات ، والحدائق البهجة ، وانواع الاشجار من اعناب ونخيل وزيتون ورمان وفواكه ، وحب الحصيد ، والزرع ذي الحب المتراكب الختدل على ان أهل تلك المناطق قد ضربوا بمحظ غير يسير في الاعمال الزراعية والتفنن فيها ، وانهم لم يكونوا في هذا المجال في الطور البدائي الذي يكون قاصراً على الزراعات الموسمية الساذجة .

وفي القرآن آيات غير التي اوردناها سابقاً تحتوي اوصافاً تتصل بالاعمال الزراعية ونتاجها وانواع غلاتها وأن تكن رردت في معرض التشبيه والتشثيل والاخبار فلها يمكن ان تضاف الى تلك الاوصاف وان يستدل بها على ان أهل المناطق الزراعية في الحجاز قد كانوا متقدمين أشواطاً غير قصيرة في مجال الأعمال الزراعية وأنهم شاهدوا وألفوا ومارسوا هذه الاوصاف والأسماء ، كما ان وجودها في اللغة العربية القرآنية التي هي لغة بيمة النبي (ص) القربي بنوع خاص دليل على ذلك في حد ذاته ، حيث ان جميع ما جاء في القرآن من أسماء واوصاف ومصطلحات ومعربات كان مألوفاً معروفاً قبل نزول القرآن .

واليك هذه الآيات :

١ = فاذع لنا ربك يخرج لنا ما تنبت الأرض من بقلها وقناتها وفومها

البقرة ٦١

وعدسها وبصلها ...

٢ - مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل  
في كل سنبله مائة حبة ... البقرة ٢٦١

٣ - مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ونشيطاً من انفسهم كمثل  
حبة بربرة اصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فأن لم يصبها وابل فطل (١) البقرة ٢٦٥  
٤ - فمثل كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صالحاً (٢) ٢٦٤  
البقرة

٥ - أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار  
له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار  
فاحترقت ... البقرة ٢٦٦

٦ - وأضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب وحففناها  
بنخل وجعلنا بينهما زرعاً. كلتا الجنتين آتت أكلهما ولم تظلم منه شيئاً. وفجرنا  
خلالهما نهراً ... الكهف ٣٣/٣٤ (٣)

جنتا الاعناب التي تكون محفوفة بالنخيل ويكون في ذات الوقت زروع  
أخرى بينها ، والجنتا المعروشات ، والحدايق ذات البهجة ، وتروع الاشجار  
المثمرة . والزروع الموسمية من الجبوب الى البقول - وكل هذا قد ورد في الآيات  
المنقولة - يمكن ان يقوم برهاناً على ذلك الحظ غير اليسير الذي كان لأهل  
تلك المناطق في الأعمال الزراعية المتنوعة . ولا بد من ان هذه المناطق كانت عمون  
مكة والمدن والقرى الأخرى التي لا تستطيع توفير حاجتها الغذائية بنفسها بسبب  
جذب التربة وشح المياه ، كذلك فإنه لا بد من ان سكان البادية كانوا يتناولون  
من هذه المناطق ما هم في حاجة اليه من غذاء ولاسيما التمر ، وقد لاحظ القاريء  
من دون ريب كثرة ذكر النخيل في الآيات .

(١) الأرض الجيدة التربة تؤتي أكلها ان أصابها وابل أو أصابها طل : اي رذاذ.

(٢) صفوان - صخر ، صلدأ ، قاسياً اي ان الواابل يجرف التراب القليل

الذي يكون على الارض الصخرية فلا يكون له نفع :

(٣) بعض المفسرين رووا ان هذا المثل لحادث واقعي في اليمن او الحجاز .

ونرجح أنه كان للجاليات اليهودية التي استقرت في الحجاز ولا سيما في يثرب ونواحيها ، وكذلك للأسفار التي كان يقوم بها أهل الحجاز الى بلاد الشام أثر غير يسير في هذا النشاط والتفنن الذي كان يبدو في مناطق الحجاز الزراعيه . فبلاد الشام جيدة التربة ، وفيرة المياه ، متنوعة المناخ ، تصلح لشقى الانواع الزراعية ، وقد كانت متقدمة في الحضارة وال عمران على الحجاز ، ومن المعقول ان يكون التفنن بلغ فيها درجة عالية . واليهود جاؤوا الى الحجاز منها على الأرجح بخبرتهم وممارستهم ، فامتلكوا الارضين وعمروها ، وتفننوا في الاعمال الزراعية فيها بما كان لهم من خبرة ومران . وقد أشارت آيات قرآنية نقلناها سابقاً الى ما كان لليهود في يثرب وحواليها من أرض وقرى واموال ونخيل أفاءها الله في النهاية على رسوله .

ولا نستبعد ان اليهود كانوا يستأجرون بعض العمال العرب ، وانه نشأ مع الزمن طبقات من العمال الزراعيين كان لهم أثر في النشاط الزراعي في الحجاز وخاصة في منطقة يثرب ، ولا نستبعد ان يكون كبار المزارعين العرب قد استحضروا بعض الخبراء والعمال الزراعيين من بلاد الشام والعراق واستخدموهم (١) في أراضيهم ومنشآتهم الزراعية ، وان يكون تعلم العرب منهم فنونهم او بعضها ، هذا بالإضافة الى ما يكون أصحاب الارض وال اغنياء العرب قد اقتبسوه بأنفسهم سواء في اسفارهم الى بلاد الشام ومصر والعراق واليمن ، حيث كانت هذه البلدان تعنى بالزراعة وتفنن فيها ، او في مارأوا اليهود بين ظهر انبيهم قد فعلوه واخططوه ، فكان من كل هذا تلك الصورة التي تلهمها الآيات القرآنية للنشاط الزراعي في عصر النبي (ص) وبيئته .

---

(١) في ابن هشام . ج ٢ ص ٣٠ ذكر لرجل من العراق اسمه عداس كان خادماً في بستان ل احد زعماء الطائف . ونحن لا نستبعد ان يكون خبيراً زراعياً جاب او اشترى خصيصاً كما نرجح ان له امثالاً كثيرين .

## النشاط الصناعي

- ١٢ -

اما بالنسبة للحركة الصناعية فنقول ان في القرآن المكي والمدني آيات كثيرة احتوت  
مسميات عديدة ومتنوعة مما هو من وسائل معاش وحياة المدن كما ترى في مايلي :

- ١ - فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ... النساء ١٠١
- ٢ - ليلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ... المائدة ٩٧
- ٣ - اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ... = ١١١
- ٤ - ولو نزلنا عليهم كتاباً في قرطاس فامسوه بأيديهم ... الأنعام ٧
- ٥ - لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ... الأعراف ٤٠
- ٦ - تتخذون من سهولها قصوراً وتتخون الجبال بيوتاً ... الأعراف ٧٤
- ٧ - وجاءوا على قميصه بدم كذب ... يوسف ١٨
- ٨ - وآتت كل واحدة منهن سكيناً ... = ٣١
- ٩ - فأتي الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم . النحل ٢٦
- ١٠ - ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً = ٦٧
- ١١ - والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً  
تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً  
الى حين ... النحل ٨٠
- ١٢ - وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم (١) ... =
- النحل ٨١
- ١٣ - يجلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس  
وأستبرق متكئين فيها على الأرائك ... الكهف ٣١
- ١٤ - فاخلع نعليك أنك بالواد المقدس طوى ... = ١٢ طاهها
- ١٥ - هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من  
نار ... الحج ١٩

(١) كناية عن الفروع والمغافر .

- ١٦ — وبئر معطلة وقصر مشيد . . . الحج ٤٥
- ١٧ — يُحاون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ٢٥
- ١٨ — الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة (١) فيها مصباح  
المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دريُّ يوَّقد من شجرة مباركة زيتونة  
لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . . . النور ٣٥
- ١٩ — ولا يدين زينتهم إلا ما ظهر منها وليضربن بحمَّرهن على جيوبهن . . .  
النور ٣١
- ٢٠ — والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن  
يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة . . . النور ٦٠
- ٢١ — قال يا أيها الملاُّ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . . . النمل ٣٨
- ٢٢ — ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة  
أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . . . لقمان ٣٧
- ٢٣ — يُدينن عليهن من جلابدهن . . . الأحزاب ٥٩
- ٢٤ — إن أعمل سابعاتٍ وقدر في السرد . . . سبأ ١١
- ٢٥ — يعملون له ما يشاء من محاريبٍ وتمثيلٍ وجفانٍ كالجوابٍ وقُدورٍ  
راسياتٍ (٢) . . . سبأ ١٣
- ٢٦ — عُرفٌ من فوقها عُرفٌ مبنيةٌ . . . الزمر ٢٠
- ٢٧ — إذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون . . . غافر ٧١
- ٢٨ — لبيوتهم سقفاً من فضةٍ ومعارجٍ (٣) عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً  
وسرراً عليها يتكئون . . . الزخرف ٣٤

(١) إن المفسرين قالوا أن المشكاة هي الكوة التي يوضع فيها المصباح ولكن روح الآية يليهم أنها أثناء شفاف يوضع فيها المصباح .

(٢) جفان جمع جفنه وهي قصعة الطعام الكبيرة والجواب جمع جابية وهي البئر الصغيرة والقُدور جمع قدر .

(٣) المعارج - السلام او الادراج

- ٢٩ — يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهب واكواب ... الزخرف ٧١
- ٣٠ — مُحلقين ومقصرين لا تخافون ... الفتح ٢٧
- ٣١ — ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ... الحجرات ٤
- ٣٣ — والطور وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع ... الطور ٥/١
- ٣٣ — خالق الانسان من اصلال كالغجار ... الرحمن ١٤
- ٣٤ — يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس ... = ٣٥
- ٣٥ — متكئين على فرش بطائنها من استبرق ... = ٥٤
- ٣٦ — حور مقصورات في الخيام ... = ٧٣
- ٣٧ — على سرر موضوعة متكئين عايها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق . وكأس من معين ... الواقعة ١٥/١٨
- ٣٨ — فضرب بينهم بسور له باب ... الحديد ١٣
- ٣٩ — وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... = ٢٥
- ٤٠ — ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ... الحاقة ٣٢
- ٤١ — ويطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديراً ... الانسان ١٦
- ٤٢ — في لوح محفوظ ... البروج ٢٢
- ٤٣ — فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة . وزرابي مبثوثة ... الغاشية ١٢/١٦
- ٤٤ — في جيدها جبل من مسد ... المسد ٥

### — ١٣ —

ففي هذه الآيات ذكر المساكن والبيوت والغرف والحجرات والأبواب والظهور والسقوف والقواعد والمعارض؛ والأثاث المتنوع الذي يصنع من أصواف الإنعام وأوبارها وأشعارها؛ والأسرة والأرائك والنمارق والزرابي والفرش

وبطائنها ؛ والأواني المتنوعة من قدور وجفان وصحاف وأكواب ، وأباريق  
وكؤوس ومصاييح ومشاك وزجاج ، وللحلي والزينة بأنواعها ، وللخيام والبيوت  
التي تصنع من جلود الأنعام ، ولثياب الحرير وغير الحرير والجلابيب والخمر  
والسراويل والقمصان والنعال ، ولرماح والسلاح والسكاكين والدروع والسلاسل  
والإغلال ، ولادوات الكتابة من قرطاس وأقلام ومداد ورقوق ، وللشراب الذي  
يصنع من ثمرات النخيل والأعناب ، وللحلاقة ، ولمعادن الحديد والنيحاس والذهب  
والفضة والصلصال الفخار ... وورود هذه الأعيان والمسميات وأوصافها ووجوه  
استعمالها في القرآن يدل على أنها كما كان معروفاً لأهل بيئة النبي وعصره قبل نزوله ،  
حتى ولو جاء بعضها في معرض التمثيل والأخبار ووصف نعم الجنة ، لأن القرآن  
لا يمكن أن يخاطب الناس إلا بلسانهم وبما يعرفونه ، وكثير من الآيات قد خوطب  
بها العرب والحجازيون أهل بيئة النبي هم أول من خوطبوا بها ، واحتوت ما يهيم  
إن مافيهما من مسميات هو من مستعملاتهم أو معروفاتهم أو مألوفاتهم .

ويجب أن يضاف إلى هذه المسميات أدوات الملاحة والزراعة المتنوعة ، التي  
لا شك في أن كثيراً منها كان موجوداً تبعاً لوجود الملاحة والزراعة الذي الهمة  
الآيات التي نقلناها سابقاً ، وإن يضاف كذلك الموازين والمكاييل المتنوعة التي  
كانت موجودة مستعملة في البيع والشراء على ما ذكرناه في بحث سابق وأوردنا  
الآيات التي تلهم وجودها أيضاً .

وواضح أن أكثر هذه الأدوات والحاجات مما يتطلب وجود طبقات من الصناعات  
في أعمال البناء ونحت الحجارة ، وفي الحدادة والتجارة والتنجيد والصبغة والحياكة  
والخياطة والنحاسة والسروجية ، وغير ذلك مما تتطلبه الحاجات التي لا بد منها لحياة  
المدن مها كانت درجتها من الحضارة ومما ذكر أكثره في القرآن حسبما اقتضته  
الحكمة والتسق مع ظروف البيئة ومألوفاتها .

ومها كانت أسفار الحجازيين البرية والبحرية ، فإنه لا يعقل أن يجلبوا كل  
ما يحتاجون إليه من الأدوات والحاجات المتنوعة الكثيرة مصنوعاً جاهزاً ، وإن  
يكونوا في هذه المواد التي كثير منها حاجات عامة ويومية عيلاً على المجلوب من

الخارج ، لاسيما وليست المواصلات بينهم وبين البلاد التي تقدمت عليهم في الحضارة والصناعات سهلة قريبة المنال .

فبناء على هذا كله فاننا نستطيع أن نقول ، وتؤيدنا دلالات الآيات القرآنية وقرائنها وملهياتها انه كان في مدن الحجاز طبقات من الصناع يقومون بكثير من الحاجات ، ويسدون الفراغ في الاعمال الصناعية . واذا كان أهل الحجاز اعتادوا ان يجلبوا شيئاً مما كانوا يستعملونه في حاجتهم البيتية والمماشية من المصنوعات والادوات فالارجح انهم كانوا يقتصرون في هذا على ما لا يمكن لصناعهم ان يقوموا به او يجيدوه ، وعلى ما يكون من حاجات ترف كإلية دقيقة الصنع من أدوات الزينة والزخارف والحرير والاولاني الدقيقة ، وبمض أنواع السلاح والنسيج .

واقدم كان في مدن الحجاز جاليات أجنبية يهودية ونصرانية ، سورية ومصرية وحبشية ورومية وعراقية سيأتي البحث عنها في فصل آخر ، واننا نرجح ان من هؤلاء من كان يقوم بكثير من الاعمال الصناعية في مدن الحجاز ويسد فيها فراغا غير يسير ، وانهم كانوا نواة وممادين لطبقات من الصناع المحليين كذلك . وفي روايات السيرة والتفسير أشارات الى شيء من هذا ، ولعلنا لانخطيء اذا قلنا ان التكسب والعمل في ساحات النشاط الاقتصادي لم يكن خاصاً بالرجل ، وانه كان للمرأة مشاركة فيها او في بعضها بأسلوب ما ، مع ما يمكن ان يكون من ضيق الحيز الذي كانت تشغله ، والنهن الذي كان يلحها مما هو متسق مع الذهنية العامة التي كانت سائدة في المجتمع العربي على ماسوف ندينه في الباب الثاني .

واعمل في آيات النساء :

يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيماً . ومن يفعل ذلك عدواناً وظالماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً . ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً . ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ...

قرينة على ما نقوله من مختلف نواحيه ، وهذا بالإضافة الى ما نقلته الروايات المؤيدة التي منها ما هو في درجة اليقين من ما كانت عليه السيدة خديجة من ثروة طائلة وما كان من اشتغال النبي ( ص ) في التجارة لحسابها لقاء اجرة معينة قبل بعثته بمدة طويلة .

## صفايى العرب

— ١٤ —

من الطبيعي ان تكون تلك الاسفار والرحلات التجارية التي كان يقوم بها الحجازيون عامة وأهل مكة خاصة الى مختلف الاقطار قد يسرت لهم الاتصال بالعالم الذي كان أرقى حضارة منهم وأكثر استمتاعاً بحياة الترف والنعيم ، وانهم لا بد من ان يكونوا قد اقتبسوا كثيراً من مظاهر ووسائل تلك الحضارة وهذه الحياة ، وان ما نما وتكاثر في أيديهم من أموال وثروات نتيجة للنشاط التجاري من ناحية والنشاط الزراعي من ناحية ثانية ، وما كان من توفر اليد الصالحة في مختلف الاعمال من ناحية ثالثة كان مما ساعد على ذلك .

ودلالات الآيات القرآنية وقرائنها تؤيد هذا القول الى حد غير يسير . ففيها وصف لزعماء مكة بالترف كما تربي في الآيات التالية :

١ — وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عابها القول فدمرناها تدميراً ..

٢ — بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ...

٣ — انهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم ...

وآية آل عمران (١٤) التي نقلناها سابقاً وان كانت تصف الاشياء المحببة للطبيعة الانسانية بوجه عام الا انها تلهم ان الاوصاف مما كانت مشهودة الاثر في

عصر النبي وبعثته كما هو المتبادر ، وقد احتوت الآية متنوع وسائل الترف كما لا يخفى . وفي بعض الآيات التي نقلناها في معرض التدايل على عظم ثروات بعض الزعماء

مثل آيات الكهف ٢٨ ومريم ٧٣ و طاهها ١٣١ والبلد ٦ ما يدل على ان اصحابها كانوا يستمتعون بها استمتاع ترف ونعيم ايضاً .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان في القرآن اوصافاً كثيرة لما في الجنة من نعيم الحياة ووسائل الترف ، ولذا اذ النفوس . ومن المعقول ان يكون الذين خوطبوا بهذه الاوصاف لاول مرة اي اهل بيعة النبي ( ص ) وعصره قد عرفوا المسميات والوسائل والمظاهر الموصوفة ، ومن المرجح ان يكون طبقات منهم قد عاشوا عيشة ترف ونعيم تقارب تلك الاوصاف بعض المقاربة ، وانهم قد عرفوا معرفة ممارسة واستعمال وتمتع الغرف العالية ، والقصور ، والحريز على انواعه من سندس الى استبرق ، والسرر الموضونة والفرش المبطنة بالحريز ، والأرائك ، والمارق ، والزرابي ، والحلي المذهبة والفضة واللؤلؤ والمرجان والدر والياقوت ، واواني الذهب والفضة من صحاف وأكواب وباريق ، والزجاج والمصابيح والمشايخ والقوارير والزخارف المتنوعة مما ذكر في الآيات التي نقلنا بعضها في مبحث الحركة الصناعية والتي ننقل بعضها فيما يلي :

١ - كأنهن الياقوت والمرجان الرحمن ٥٧

٢ - متكئين على فرش بطائنها من استبرق . الرحمن ٥٤

٣ - على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان

مخلدون باكواب وباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وقاكية مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون الواقعة ١٥ - ٢٣

٤ - وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً . متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذابيلاً . ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قواريراً . قوارير من فضة قدروها تقديراً . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً . عينا فيها تسمى ساسبيلاً . ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . واذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا اساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً

فانت اذ تتمن في الاوصاف المذكورة في هذه الآيات وتلك تتيقن انها اوصاف مألوفة في الحياة الدنيا ، وان الذين خوطبوا بها لأول مرة لم يكونوا غرباء عنها . وهذا هو المتسق مع اسلوب القرآن وغاياته . حيث يكون تأثير الترغيب والترهيب اشد اذا كان بما هو معروف من وسائل اللذة والألم وآثارها المألوفة من قبل السامعين . وفي سورة البقرة آية تساعد على هذا الاستدلال حيث تقرر ان ما يرزق به اهل الجنة يكون متشابهاً لما كانوا يرزقون به فيتعرفون عليه ويقولون هذا مثل ما كان عندنا ومثل ما كنا نرزق به ، وهذه هي الآية :

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كل ما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً  
البقرة ٢٥

ولا ينقض الاستدلال ما استدركه بعض المفسرين من اختلاف العظم واللذة من رزق الدنيا ورزق الآخرة كما هو المتبادر .  
واعلم في آية الاعراف هذه :

قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة لهم يوم القيامة .  
٣٣  
دليلاً على ما نحن في صدد تقريره ايضاً ، حيث تستنكر منع الاستمتاع بالطيبات من الرزق وزينة الله التي اخرج لعباده ، وتبيحها للمسلمين في الدنيا يشاركون فيها غيرهم وتحصرها لهم في الآخرة .

- ١٥ -

وفي القرآن آيات كثيرة مكية ومدنية حول الانعام والمواشي ، واشارات الى ما يجنى منها من فوائد ومنافع من البانها واصوافها واوبارها واشعارها ولحومها وجلودها وظهورها ، وكذلك الى حاجتها من الماء والمرعى ، والى ما كانت من بعض العادات المصطبغة بالصبغة الدينية في ذبحها واكائها وهداياها وتحميها وتحريمها ونذرها ؛ كل ذلك بحفاوة كبيرة ، ومواضع عديدة ، واساليب متنوعة مما يمكن

ان يستدل به على انه كان لاهل الحجاز منها ثروة كبيرة ، ومنافع عظيمة ،  
ومشاغل كثيرة ، وانهم كانوا يعنون بها عناية فائقة ، كما ترى في الآيات التالية :

١ - زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ  
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ آل عمران ١٤

٢ - ولأضغانهم ولأمنينهم ولأمرئهم فليبتسكن آذان الأنعام (١) .

النساء ١١٨

٣ - يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الهدى ولا القلائد .

المائدة ٢

٤ - جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى  
والقلائد (٢)

المائدة ٩٧

٥ - ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وديلة ولا حام (٣) المائدة ١٠٦

٦ - وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم

وهذا لشركائنا (٤) الأنعام ١٣٦

٧ - وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حرج لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام

حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها (٥) الأنعام ١٣٨

٨ - وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا

وان يكن ميتة فهم فيه شركاء (٦) الأنعام ١٣٩

٩ - ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آ الذكرين حرم أم

الإثنين أم ما اشتملت عليه أرحام الاثنين نبتوني بعلم ان كنتم صادقين . ومن

الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آ الذكرين حرم أم الاثنين أم ما اشتملت عليه

أرحام الاثنين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا (٧) . الأنعام ١٤٣-١٤٤

---

(١) البتة - الخرق . (٢) سيأتي شرح هذه في باب العقائد والاديان .

(٣) الهدى هو الأنعام التي تنذر للقربان التضحية عند الكعبة . والقلائد وهي

ما يوضع في اعناق الهدى من قلائد لاعلاف انما نذر الكعبة وسميت الأنعام المقلدة بالقلائد .

(٤) هذه عادات عليها صبغة دينية سيأتي شرحها في باب العقائد والاديان . (٥) و٥٥٤ و٧٩٦

- ١٠ — ومن الانعام حمولة وفرشا .  
 الانعام ١٤٣
- ١١ — والانعام خلقها الله لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم .  
 النحل ٧ - ٩
- ١٢ — وانزل لكم من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون (١)
- النحل ١٠
- ١٣ — وإن لكم في الانعام عبرةً لعلكم تسمعون مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين (٢) .  
 النحل ٦٦
- ١٤ — وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها وابوابها وأشعارها اثاثاً ومناجاً الى حين .  
 النحل ٨٥
- ١٥ — ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير .  
 الحج ٢٨
- ١٦ — والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافاً فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم (٣) .  
 الحج ٣٦ - ٣٧
- ١٧ — وانزل من السماء ماءً فاخرجنا به ازواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك آيات لاولي النهى .  
 طاه ٥٣ - ٥٤
- ١٨ — وانزلنا من السماء ماءً طهوراً . لنحیی به بلدة ميتاً ونسقيه ما خلقنا

(١) تسمون : تسمون انعامكم للرعي .

(٢) الفرث نفايات الطعام بعد الهضم .

(٣) البدن : يطلق هذا على الابل والبقر . صواف : بمعنى وهي مصفوفة .

المعتر : المحتاج السائل وكان من عادة العرب ان يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدى وان يدعوا لحومها دون مس لانها لله فنهت الآية الى التقصد الجوهري وهو تقوى الله وذكره والتزام حدوده .

انعاماً واناسي كثيراً . الفرقان ٤٨ - ٤٩

١٩ - أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً فهم لها مالكون .  
وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب افلا يشكرون

ياسين ٧١ - ٧٢

٢٠ - الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم

فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . غافر ٧٩ - ٨٠

٢١ - والذي خلق لكم الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام

ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمه ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا

سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . الشورى ١٢ - ١٣

٢٢ - اخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها . متاعاً لكم ولانعامكم .

النازعات ٣١ - ٣٢

ولا بد من ان القارئ قد لمس من هذه الآيات ما توهنا به من الحفاوة التي

اسبغها القرآن على موضوع الانعام والمواشي ، بسبب ما كان لها من اثر بليغ في

حياة العرب في عصر النبي ( ص ) وبيئته . والذي يتبادر الى الذهن ان البدو

هم الذين كانوا يعنون العناية الكبرى بتربية الانعام والمواشي ، ويعولون في حياتهم

ومعايشهم وتنقلاتهم غايبا اعظم تعويل ، لاتساع طبيعة حياتهم لها . ولانهم من

طبيعتهم التنقل وراء الماء والكلاء وهما ما تحتاج اليه المواشي والانعام ، ولأن

حياتهم المعاشية تضطرهم الى ذلك .

غير ان اطلاق الآيات القرآنية ، وتوجيه الخطاب فيها الى سامعين قريين

يسوغان القول ان أهل المدن والقرى الحجازية ايضاً كانوا يشاركون البدو في

هذه الناحية ، حيث كان منهم اصحاب انعام ومواش كالبدو ، يعنون بها

عناية كبيرة ، وينتفعون بها انتفاعاً عظيماً متنوع الوجوه . فالزراع منهم في حاجة

ماسة الى الابل والبقر في الاعمال الزراعية ، والتجار منهم في حاجة ماسة الى

الابل وخاصة في قوافلهم واسفارهم الطويلة الشاقة حيث لم يكن يقوم بها غير الحمل

الصبور المبارك .

كذلك في القرآن بضع آيات ذكر فيها الصيد ؛ مما يمكن ان يلبسهم انه كان من مشاغل العرب ومعايشهم المهمة في ذلك العهد ؛ يترنون به على اعمال الفروسية والطاراد والرمي ، ويمولون عليه في معيشتهم وهذه هي الآيات :

١ - يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم (١) ...

المائدة ١

٢ - واذا حملتم (٢) فاصطادوا ...

٢ =

٣ - يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ...

المائدة ٤

٤ - يا ايها الذين آمنوا لياونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم وربما حرم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم . يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم (٣) يحكم به ادوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة او كفارة طعام مساكين او عدل ذلك صياماً ليندوق وبال امره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسياارة (٤) وحرم عليكم صيد البر مادتم حراماً واتقوا الله الذي اليه تحشرون ...

المائدة ٩٤ ٩٦

(١) لا تحلو الصيد وانتم في حالة الحرم . وحالة الحرم قبل الاسلام كانت تعبر عن ظرفين على ما يستلزم من الآيات القرآنية والروايات وهما ظرف الأشهر الحرم وظرف منطقة بيت الله الحرام . والاول عام بحيث يشمل اي مكان وقد عدل هذا في الاسلام بالسنة النبوية بحيث صارت حالة الحرم هي حالة الاحرام اي لبس غير الخيط للزيارة او الحج :

(٢) اي اذا انتهت حالة الحرم .

(٣) المشية عموماً .

(٤) قوافل المسافرين .

ويستأهم من آية المائدة (٤) انّ العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ساروا في فنون الصيد شوطاً غير يسير. فكانوا يستعينون عليه بالطيور الجارحة - كالبزاق والعقبان والصقور - وبالكلاب ، وكانوا يعلمون هذه الحيوانات الصيادة تماماً لتقوم بمهبتها على وجه مرضٍ . ويستأهم منها كذلك ان المسلمين اخذوا يخرجون من أكل الصيد الذي يستعان عليه بالجوارح المعاملة ، فأحل لهم القرآن ذلك في حالة الحل - عكس الحرم - على شريطة ذكر الله عند رمي السلاح واطلاق الجارح .

ولقد اشير في الآية (٩٦) الى صيد البحر وما فيه من فوائد معيشية للناس في حالة السفر والإقامة ؛ وهذا يعني ان هذا الصيد مما كان يعول العرب عليه كذلك في معاشهم ، ويتخذون منه صناعة ومرزقاً .

ومن الممكن ان يستأهم من الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٤ - ٩٦ ان العرب قبل الاسلام كانوا يحرمون صيد البر والبحر معاً في حالة الحرم تبمأ لما كانوا عليه من تحريم سفك الدماء وأعدام الحياة في الاشهر الحرم ؛ فرفع الحرج عن المسلمين في صيد البحر في حالي الحل والحرم لشدة الضرورة والحاجة المعاشية الماسة ، وخاصة للمسافرين حذاء السواحل ، وأقر تحريم صيد البر في حالة الحرم وتحليله في الحل. واطلاق حل صيد البحر في الحالتين يمكن ان يدل على انه كان مرزقاً وضرورة معاشية أشد لزوماً او اوسع نطاقاً من صيد البر .

وليس في الآيات تخصيص المدين كانوا يشتغلون بالصيد وصنوفه . فمن الممكن ان يقال والحالة هذه ان العرب حضرهم وبدوهم على السواء كانوا في ذلك العهد يهتمون له ، ويعولون عليه ، ويشتغلون به وان كان الذي يتبادر ان البدو هم اكثر اشتغالاً وانها كآ في صيد البر وتعويلاً في معاشهم عليه ، وأن اهل السواحل هم الاكثر اشتغالاً وانها كآ في صيد البحر وتعويلاً في معاشهم عليه .

هذا ؛ وتعبير تناله أيديكم ورماحكم ، في الآية ٩٤ يلهم ان العرب كانوا يصطادون بالرمح أحياناً كما ان الآية (٤) تلهم انهم كانوا أحياناً يصطادون بالنبل يرشقون به الصيد من بعيد ثم يطلقون الكلاب والطيور الجارحة وراءه .

وفي القرآن أيضاً آيات كثيرة يمكن الاستدلال بها على عادات عديدة من عادات بيئة النبي (ص) وعصره في الأكل والمشرب واللبو وفي المساكن والأثاث والكساء والزينة بالإضافة الى ما ذكرناه في البحوث السالفة ؛ ونبه على ان هذا البحث لا يتناول ما يتصل بمعاداتهم واذلاقتهم وتقاليدهم العائلية والاجتماعية والدينية والنفسية لأن بحث ذلك سيأتي في فصوله الخاصة الآتية .  
فاولاً الاطعمة

آ - مما يصح ان يقال استلهاماً من الآيات القرآنية العديدة في الانعام ولحومها وألبانها ماوردنا منه جملة صالحة في احد المباحث السابقة أن لحوم الحيوانات وخاصة الضأن والمعز والبقرة والابل والبانها كانت الغذاء الرئيسي او غذاءً رئيسياً في بيئة النبي (ص) وعصره . اما معالجة اللحوم للأكل فكل ما ذكر منها «الحنيذ» وهو المشوي حيث جاء هذا التعبير في صدد ضيوف ابراهيم (ص) :

فما لبث ان جاء بمجلى حنيذ ... هود ٦٩

ومما لا ريب فيه انه كان لهم طرق عديدة اخرى لمعالجة اللحوم .

ب - هناك آيات مكية ومدنية فيها تؤكد تحريم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير تنقل منها ما يلي :

١ - انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ... البقرة ١٧٣

٢ - حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب (١)

(١) المنخنقة التي تموت خنقاً . المتردية التي تموت بالسقوط من عالٍ . النطيحة التي تموت بالنطح - وما أكل السبع التي يفترسها وحش وتموت بين انيابه والاستثناء للجميع ، فكل ما يعترض لمثل هذه الميتات ويأحق به حياة وذبح وذكر اسم الله عليه حل أكله . وما ذبح على النصب - الذي يذبح عند الاصنام . الاستقسام بالازلام - وهو بالغالب لحوم الميسر الذي سنشرحه بعد قليل .

وال تستقسموا بالارلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوفم  
واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً  
فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم ... المائدة ٣

٣ - قل لا أجد فيما وحي الي محرمات على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة او دماً  
مسفوحاً او لحم خنزير فانه رجس او فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ  
ولا عاد فان ربك غفور رحيم . الأنعام ١٤٥

وإذا صح ان يقال ان هذه محرمات توراتية ايضاً وان الله اوحى بتحريمها في  
القرآن كما اوحى بتحريمها في التوراة فان الفقرات التي تذكر العفو عن حالة  
الاضطرار فيها كلها وجملة « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » في آية  
المائدة تدل على ان أهل بيعة النبي (ص) كانوا يتناولون هذه المحرمات او شيئاً منها  
على الأقل؛ هذا بالاضافة الى ان في آية المائدة ايضاً وافياً حيث ذكرت أنواع  
الميتات وحيث يلهم هذا الايضاح بقوة ان العرب كانوا يأكلون الانعام التي تموت  
حتف أنفها أو بطاري غير الذبح ايضاً على ان هناك في سورة الانعام آية فيها  
صراحة أقوى في صدد عادة أكل الميتة عند العرب وهي :

وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن

ميتة فهم فيه شركاء ... ١٣٩

ومما يروى عنهم قولهم كيف نأكل ما امتناه بأيدينا ولا نأكل ما امانه الله ...  
ولقد اورد المفسرون في صدد اكل الدم ان العرب كانوا يعالجونه بالطبخ  
ويضيفون اليه بعض النباتات ذروراً . ولا يبعد ان يكون هذا القول متصلاً  
بالمشاهدات المستمرة ؛ وعليه يمكن ان يقال ان العرب كانوا يأكلون الدم المسفوح  
اما الخنزير فلم نطلع على رواية ما بشأن اعتياد أهل بيعة النبي (ص) وعصره أكله  
او بشأن ما اذا كان هذا الحيوان مما يعيش في بلاد الحجاز . ولهذا نميل الى القول  
ان أهل البيعة من العرب لم يكونوا يأكلونه عادة، وان كان من المحتمل ان يكونوا  
عرفوا لحمه وأكلوه في اسفارهم الى بلاد الشام حيث يعيش وحيث كانت النصرانية  
هي السائدة وحيث كان النصراني يأكلونه .

وواضح ان تحريم الدم والخنزير والهيئة في القرآن في سبيل منع ما اعتبرته الحكمة من الخبيثات لا يتعارض مع كون هذه المحرمات هي محرمات توراتية ؛ وكل ما في الامر ان تحريمها في القرآن والتوراة معاً مع دلالات شيوع استعمالها في بيئة النبي (ص) وعصره يدل على انها من العادات القديمة جداً .



ت - لم يرد في القرآن ذكر للخبز ، ولكنه ورد فيه تعبيرات «حب الحصيد» وحباً متراكباً وحبّة انبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة و « الفوم والعدس والبصل والبقل والقماء » و « الزروع » بالإضافة الى ذكر الاشجار كما نقلنا آياته في بحث سابق فورد لها يلهم ان أهل بيعة النبي (ص) وعصره عرفوا هذه الحبوب ومارسوها زرعاً وطعاماً . وهذا مؤيد بالأحاديث والروايات العديدة ايضاً .

ث - ولقد كثر ذكر النخيل وطلعه النضيد والهضم في مناسبات وآيات عديدة نقلناها سابقاً . وفي احدي الآيات إشارة الى ما كان يتخذه العرب من ثمرات النخيل من الرزق الحسن ( الطعام الحسن على الارجح ) ، وهذا يدل على ان البلح ومجففه كان من الاغذية الرئيسية في عصر النبي (ص) وبيئته .

ج - ولقد ذكر العسل ايضاً في بعض الآيات ، منها ما ذكر معه ان فيه شفاء للناس :

« واوحى ربك الى النحل ان اتخذني من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كالي من كل الثمرات فاسلكي سبيل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ... النحل ٦٨/٦٩

ومنها ما ذكر كوصف لما في جنات الآخرة من خيرات عظيمة :

مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ... محمد ١٥

فيسوغ كما هو واضح ان يقال ان العسل كان من الاطعمة المرغوبة كما انه كان يتخذ علاجاً ، وانه كان يعالج بالتصفية ، وهذا ما يمكن ان يدل على ذوق حضري راق كما هو المتبادر .

خ - ولقد ذكرت شجرة الزيتون والزيتون في آيات عديدة ، ونوه خاصة في بعضها بثمرها الذي فيه الدهن والصبغ ( الأدم ) الكلين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ الأكلين ... المؤمنين ٢٠ فيسوغ ان يقال ان الزيت كان من الاغذية المهمة في بيئة النبي (ص) وعصره . وفي آية سورة النور (٣٥) ما يمكن الاستدلال به على ان الحجازيين كانوا يستعملونه في الاضاءة ايضاً . « كأنه كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » ومما يلفت النظر ذكر آية المؤمنين الشجرة بأنها تخرج من طور سيناء ، هذا في حين ان الزيتون ورد في آيات اخرى مع الرمان والعنب والنخيل وبأسلوب يليهم انه كان ينبت في الحجاز مثل هذه الاشجار كما في آيات الانعام (٩٩) و (١٤١) والنحل (١١) مثلاً . ولا ندري اذا كان يصح ان يقال استلهاماً من القرآن وتوفيقاً بين مدى آياته ان آية المؤمنين بسبيل ذكر مناشي الزيتون الاولى وان الحجازيين أتوا بفسائله من منطوقه طور سيناء وغرسوها في بعض مناطقهم لاسيا في الطائف المتشابهة في أقليمها لأقليم الشام بعض الشيء . وعلى كل حال فالذي نرجحه انهم كانوا يستعملون من الزيت مقادير كبيرة للأكل والأستصباح ، وانهم كانوا يجلبون حاجاتهم منه او اكثرها من بلاد الشام .

خ - ولقد ذكر العنب والرمان مرات عديدة وذكر التين مرة ، واستعمل تعبيرات فاكهة وفواكه في آيات اخرى مطلقة ، وأشير الى استصناع الرزق الحسن ( الطعام الحسن ) من ثمرات الاعناب كثمرات النخيل . فهذا يسوغ القول ان أهل بيئة النبي وعصره كانوا يعرفون هذه الانواع وما في بابها غراساً واكلاً غذاء حيناً وتفكهاً حيناً آخر .

ولقد ذكرنا ما كان يشغله لحم الصيد البري والبحري من حيز في حياة العرب المعاشية وغذائهم فنكتفي بهذه الاشارة لأتمام السلسلة .

ثانياً الأشربة والخمرة :

ان في القرآن آيات عديدة في الشراب والخمرة والمسكر . منها ما يشير فيه الى صنع المسكر من ثمرات النخيل والاعناب ، ومنها ما يشير فيه الى ما أعده الله للمؤمنين في الجنة من الخمر والشراب وصفاتها وآييتها وما بينها وبين شراب الدنيا وخمرها من فروق وما لُحِر الدنيا من أعراض مستكرهة خلصت منها خمر الآخرة . ومنها ما شبه فيه بعض حالات الانسان بالسكر والسكرى ، ومنها ما فيه سؤال عن الخمر ثم نهى عنه كما ترى فيما يلي :

١ - يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وأثمها

البقرة ٢١٩

أكبر من نفعها ...

٢ - يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ...

النساء ٤٣

٣ - يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من

عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم

الماندة ٩٠ - ٩١

منتهون ...

٤ - « لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون .. »

الحجر ٧٢

٥ - « ومن ثمرات النخيل والاعناب تخذون منه سكرًا وورقًا

النحل ٦٧

حسنًا ... »

٦ - « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها

الحج ٢

وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ... »

٧ - على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس (١) من معين . بيضاء لذة

الصفافات ٤٤ / ٤٧

٨ - « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها

(١) في تفسير الطبري ان كل كأس في القرآن اريد بها الخمر :

ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . الطور ٢٢/٢٤  
 ٩ - « ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً (١) . الدهر ٥  
 ١٠ - ان الابرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم  
 نضرة النعيم . يسقون من رحيق (٢) مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس  
 المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عيناً يشرب بها المقربون . المطففون ٢٢-٢٨  
 ١١ - ومن هذا الباب آيات سورة الواقعة ١٥ - ٢٣ والانسان ١٢ - ٢١  
 التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي تحتوي وصفاً رائعاً لنعيم الجنة وفي جملة ذلك  
 خمرها وآنيها ومزج الزنجبيل بها .

فآيات تاهم : اولاً ان صنع الخمر وتعاطيها كانا يشغلان حيزاً غير قليل في  
 عصر النبي (ص) وبيئته ، وان تعاطي الخمر كان واسع الشيوع ، وشديد الرسوخ ؛  
 فتكرر وصف الخمر على انها من لذائد الجنة الاخروية وذكر كونها في الجنة  
 كالانهار كثرة يدلان على انها كانت من مطالب النفس الرئيسية التي لا منصرف  
 عنها ؛ والتدرج في تأثيمها ثم النهي عن الصلاة في حالة السكر ثم النهي عنها يدل  
 على شدة رسوخها بحيث لم يكن بد من هذا التدرج في سبيل الوصول الى الغاية  
 التشريعية في أمرها ، ويلفت النظر الى أن آيات المائدة من أواخر ما نزل من القرآن  
 وهذا يعني ان تعاطي الخمر بين المسلمين ظل مستمراً شائعاً وراسخاً الى زمن  
 متأخر من العهد المدني ، وفي هذا تقوية للاستدلال الذي ذكرناه .

وثانياً : ان اوصاف مجالس الشراب في الجنة واوصاف الخمر ومزاجها  
 مما هو مألوف من اوصاف الدنيا ، وان السامعين للقرآن لأول مرة لم يكونوا  
 غرباء عنها وان منهم من كان يستمتع بشيء من ذلك حيث كان المترفون من اهل  
 مدن الحجاز ومكة خاصة لان اكثر اوصاف مجالس الشراب مكية يتأقنون فيها

(١) يطيب طعمها بمزج الكافور :

(٢) الرحيق افضل انواع الخمر واجودها مع ما جاء في جميع البيان . ومن

قول حسان :

يسقون من برد البريص عليهم بردى تصفق بالرحيق السلسل

فيعتقدون لها المجالس ، وينصبون الارائك والاسرة ، ويزيتونها بالرياحين ، ويمدون فيها مواد اللحوم والفواكه على انواعها ، ويلبسون فيها ثيابهم الحريرية ، ويطيئون خمرتهم بما يصلح من طعامها ورائحتها كالزنجبيل والكافور والمسك ، ويتقف على خدمتهم الولدان ، ويدورون عليهم بالاواري الفضية والاقداح البلورية ، وذكر الزنجبيل والكافور والمسك خاصة من مؤيدات ما تقرره ، لانه لو لم يكن مزج الحمرة بهذه العقاقير بسبيل تطيبها معروفاً ومألوفاً لما بانت الحكمة في ذكر ذلك لاسيما ومن المعروف اليقيني ان هذه العقاقير مما كان معروفاً ومألوفاً بصورة عامة وبسبيل تطيب الحمرة بصورة خاصة .

وثالثاً : ان الخمر تعبير عام يراد به الشراب المسكر ، ولا تعني نوعاً بعينه . ومن الممكن والحالة هذه ان يكون العرب قد عرفوا ومارسوا وصنعوا انواعاً عديدة ، ومن جعلتها نوع ذي لون ابيض مما تلهمه احدي الآيات . وان الخمر كانت تصنع من البلح والمنب ، وطبيعي انه يدخل في هذا مجفقاتها كالتمر والزبيب ، وان الناس كانوا يجنون من الحمرة منافع خاصة متصلة بالحركة الاقتصادية بالاضافة الى اللذة الشخصية .

هذا ؛ والذي تقدره وان لم يمكن الاستدلال عليه بالقرآن ان صنع المسكر وتعاطيه كان على الأغلب في المدن . فخدائق النخيل والأعشاب انما كانت في الطائف ويثرب . وهذه المجالس التي كانت تعقد للشراب ويتأنق فيها لا تقيس الا في المدن . والمنافع التي في الحمرة متصلة على الأرجح بالحركة التجارية والصناعية التي هي من طبيعة حياة المدن . وطبعاً ان هذا لا يعني ان يكون بعض البدو قد تعاطوها ايضاً .

— ٢٠ —

ثالثاً الميسر :

وقد ذكر الميسر في آيات البقرة ٢١٩ والمائدة ٩١ — ٩٢ التي نقلناها في البحث السابق ، اذ جاء ذكر الميسر مع ذكر الخمر وسلك معها في سلك واحد من حيث المنافع والاثم والنهي عنه ، ووصفه رجساً يؤدي الى العداوة والبغضاء

ويمنع المرء من قيامه بواجباته نحو الله مثلها .  
ويمكن ان يستلهم من هذه الآيات :

اولاً ان الميسر كان من العادات التي اعتادها الناس لاهو .  
ثانياً انه كان شائعاً وراسخاً ؛ حتى لم يكن بد من الانتظار الى اواخر العهد  
المدني للنهي عنه باسلوب حاسم .

ثالثاً انه كثيراً ما كان ينشأ عنه خلاف يؤدي الى البغضاء والعداوة .  
هذا ؛ ولقد تعددت الاقوال في مدلول كلمة « الازلام » الواردة في آية المائدة  
(٩١) وفي آية اخرى من السورة نفسها وهي (٣) التي نقلناها كذلك في مناسبة  
سابقة . فهناك من قال انها كانت سهام يقذف بها عند صنم هبل في فناء الكعبة  
للاستخارة . حيث كان نوعان من القداح نوع كتب عليه امر ونهي ، ونوع  
كتب عليه الفاظ متصلة بمشاكل الانساب والدماء ، فيأتي الذي يعترزم سفرراً او  
عملاً الى سادن الصنم ويطلب منه اجراء الاستخارة ، وهذا سيرد الكلام عليه  
في باب العقائد والأديان . وهناك من قال انها سهام كان يقذف بها على سبيل الميسر  
والاهو . وكانت عشرة سبعة منها رابحة وثلاثة خاسرة ؛ فيجتمع الفتيان فيشترون  
جذوراً ويقسمه الجزار الى عشرة اجزاء ، ثم تخاط السهام ويقذف بها فاصحاب  
الأسهم الرابحة يأخذون اللحم والخاسرون يغمون الثمن . ولقد رجحنا في تفسيرنا  
لآية المائدة (٣) ان الازلام فيها ما ذبح على سبيل الميسر لان الآية تذكر صفات  
الانعام التي يحرم اكلها . اما الازلام الواردة في الآية (٩١) فمن المحتمل ان  
يكون المقصود بها ازلام الاستخارة لان الآية قد ذكرت الحجر والميسر والازلام  
معاً . ويستخلص مما تقدم (١) ان الميسر عند العرب هو القمار عامة وانه متنوع  
الاشكال . (٢) ان هناك نوعاً من الازلام التي تقذف على لحوم الجذور فيخسر  
الخاسر الثمن ويربح الراجح اللحم (١)

(١) جاء في محاضرات الخضري ج ١ ص ٦٠ وصفاً للميسر ماسوماً وملخصاً  
من مختلف الروايات العربية نقله لاتمام الصورة : كانت طريقتهم في لعبه ان  
يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار الى عشرة اجزاء ثم

ورابعاً الفناء والسمر :

كما يلفت النظر انه ليس في القرآن ذكر للفناء ومجالسه ووسائله بصراحة ، حتى ولا في صدد ما اعده الله من المتع الاخروية كما هو الامر في الحشر اذا استثنينا

يحاء بالقдах وهي عيدان من نبع - نوع من الشجر - قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحاس والنافس والمسبل والمعلي والمنيع والسفيح والوغد . والثلاثة الاخرى غفل من الالامات لا نصيب لها وانما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الاول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلي ، فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته او استعداده ثم يدفعون هذه القдах الى رجل يقال له امين المقامرين فتدفن في الرمل او توضع في خريطة ويلف على كف الامين قطعة من جلد الثلايجابي احداً من المقامرين فيخرج له قدحه ، ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الامين يده فيخرج قدحاً . ولنفرض ان الخارج هو الفذ فيكون لصاحبه عشر الجزور ثم تضرب القдах فان خرج التوأم فلصاحبه عشران ثم تضرب فان خرج المعلي فلصاحبه سبعة اعشار ويكون الغرم على الباقيين وعدد سهامهم ثمانية عشر فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً يدفع كل منهم قدر سهامه ، وان خرج في اول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة اجزاء . ويضرب على السبعة الباقية فان خرج بعده المسبل اخذ ستة اجزاء وبقي واحد فلا يمكن الضرب عليه ، لان في القдах ما يستحق اكثر من جزء وهو المعلي ، فيشترون جزوراً اخر يقسمونه كالاول فيكون الباقي احد عشر جزءاً فيضربون القдах عليها فان خرج المعلي اخذ سبعة وبقي اربعة فلا يمكن ضرب القдах عليها لان فيها من يستحق اكثر من اربعة وهو النافس فينجرون جزوراً آخر فيكون الباقي اربعة عشر جزءاً فاذا خرج النافس اخذ خمسة اجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحاس اخذ اربعة ثم التوأم وله جزآن ثم الفذ وله واحد فالمجموع اثني عشر جزءاً وبقي جزءان يوزعان على الفقراء وكل من ربح في جزور ليس عليه من ثمنه شيء ويدفعه الذين لم يربحوا

عبارة فسرها بعض المفسرين بالغناء . ولم نستطع ان نثبت ان حكمة ذلك ، لا سيما والغناء يكاد يكون طبيعياً في البشر ، ويوجد في كل بيئة مهما كان حفظها من الحضارة ، ثم ان مجالسه وفنونه ووسائله مما يشوق النفس ، ويكون لها متعة ولذة مثل متعتها ولذتها في تعاطي الشراب ومجالسه الانيقة .

وايس مما يصح فرضه ان لا يكون شيء منه فيه متعة ما في بيئة النبي ( ص ) وعصره ، وقد كان لهما حظ غير يسير في المتع الاخرى وقد روت الروايات ما يؤيد وجود شيء منه حيث ذكرت ان ابا جهل حينما ورد على ماء بدر مع الجيش الذي جاء لانقاذ قافلة ابي سفيان أبي ان يعود ما لم تنجر الجزور وتشرب الخمر وتغني لهم القيان اي المغنيات ، فكان اصراره هذا سبباً من اسباب الاشتباك بين المشركين والمسلمين .

اما تلك العبارة التي اشرنا اليها فهي الواردة في سورة الجمعة « اذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها » حيث قال المفسرون ان الهم المذكور كناية عن الغناء ، ورووا ان جوقة من الضاربين على المزمار والدفوف مرت من ناحية المسجد مرة فخرج كثير ممن فيه للفرجة فاستحوا والتنديد الذي احتوته الآية .

ومهما يكن من امر فالذي نرجحه ونستأمله من اغفال القرآن ان الغناء لم يكن مترقياً في بيئة النبي ( ص ) وعصره ، وفي مكة والمدينة على السواء ترقياً متناسباً مع ما كانت عاياه البيئة والمصر من حظ غير يسير في الحضارة والاستمتاع ولم يكن تعقد له مجالس انيقة ينتشي بها السامعون كما هو الشأن في مجالس الشراب ، وبالتالي انه لم يكن متعة ولذة منتشرتين ينهك الناس لهما ويتحسنان التنويه والحفاوة كتلك .

واعل في تاريخ الغناء في المدينة في عهد الأمويين دليلاً على ذلك . فقد قامت للغناء دولة حقاً فيها فصارت تعقد المجالس الانيقة التي يغني فيها ويضرب فيها على آلات الطرب ، ويشرب فيها معاً ، غير ان المغنين والمغنيات قد جابن جلاباً من الخارج وبعد الاسلام لا قبله .

اما السمر في القرآن آية ذكر فيها لفظ « السامر » وهي :

« قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون. مستكبرين به سامراً تهجرون ... »

المؤمنون ٦٦ ٦٧

ففي الآيتين تنديد بالمشركين لمجرم النبي وأحارثه كأنما هو سامر اي قصاص يتلو عليهم اساطير، ويحكي لهم أفاعيص، وليس منذر أداًعياً الى الحق وصر اطمستقيم . فهذا يلهم انه كان يعقد في بيئة النبي ( ص ) وعصره حلقات سمر تقص فيه القصص وتدور فيه الاحاديث عن الامم والوقائع السالفة . وامل استعمال كلمة « سامر » يلهم انه كان هناك أناس متخصصون لذلك ، يتخلق الناس عليهم ، ويقضون بعض الوقت او بعض الليل حولهم سامرين .

- ٢٢ -

خامساً المساكن:

في القرآن آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على المساكن التي كان يتخذها العرب حضراً وبدواً . فآيات البقرة ١٨٩ والتوبة ١١١ والأعراف والنحل ٢٦ و ٨٠ والنور ٦١ والزخرف ٣٣ - ٣٤ والزمزم ٢٠ والطور ٣ - ٤ وهذه الآيات مما نقلناه في مناسبات سابقة تدل على ان سكان المدن في الحجاز كانوا يبنيون البيوت على أسس وقواعد ، ومنها ما كان ذات طبقات بعضها فوق بعض ، يصعدون اليها بالمعارج اي السلم او الادراج؛ كما انهم كانوا حينما يظعنون الى البادية - وهذا ينسحب على سكان البادية بطبيعة الحال - يتخذون من جلود الانعام بيوتاً ، وانهم قد عرفوا الخيام ايضاً

سادساً الأثاث والفرش:

كذلك فان آيات الكهف ٣١ والزخرف ٧١ والرحمن ٥٤ والواقعة ١٧ - ٢٣ والانسان ١٢ - ٢١ والغاشية ١٣ - ١٦ والنحل ٨٠ وسبأ ١٣ والزخرف ٣٣ - ٣٤ والمائدة ١١٢ وهي ما نقلناه ايضاً في مناسبات سابقة تدل على ان العرب كانوا يتخذون من أدواف الانعام واوبرها وأشعارها أثاثاً، وانهم كانوا يستعملون الاسرة والتمارق والزرابي ومتنوع الأواني من جفان وقدرور وأكواب والباريق وصحاف وموائد ونحوها .

سابعاً الكساء:

ان آيات النور ٣١ و ٦٠ والاحزاب ٥٩ وهي مانقائاد سابقاً تدل (أ) على ان النساء كن يتخذن الحمار ، وان للثوب الذي يلبسنه شقوقاً ( جيوباً ) تبدو منها أعناقهن وبعض اقسام من صدورهن وظهورهن . (٢) على انهن كن يتخذن جلباباً فوق ثيابهن وهو غير الحمار ، ولعله نوع من العباة. ومما تلهم الآيات ان اوصاف الكساء فيها هي اوصاف زي المرأة في المدن وان المرأة العربية المدنية لم تكن متشددة في التحفظ والتحشم وعدم الكشف عن المفاخر والزينة في طراز اللباس ولا ندرى هل كانت المرأة البدوية تتزيا بنفس الزي او ما يقرب منه ، وان كنا نميل الى القول بالزي المتقارب .

اما الرجال فليس في القرآن شيء عن زي معين لهم كما هو الحال في شأن النساء . وكل ما هنالك انه ورد فيه ذكر الثياب والسراويل والقميص والنعلين والتدثر ذكراً يلبسهم انه في صد ثياب الرجال .

ثامناً الحلية والتبرج:

ان جملة « ولا يضربن بأرجلهن ايعلم ما يخفين من زينتهن » في آية النور (٣١) تدل على ان المرأة العربية كانت تتخذ الخخال في رجلها زينة لها . كذلك فان الآيات العديدة التي اثبتناها في مناسبات سابقة والتي ذكر فيها الأساور الذهبية والفضية واللؤلؤ والمرجان كحلي تدل بطبيعة الحال على انها كان يتخذ من هذه الانواع حلياً ايضاً .

وجملة « فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة » في آية النور (٦٠) وجملة « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وايضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعوثهن » في آية النور (٣١) وجملة « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » في آية الاحزاب (٣٣) يمكن ان تلهم ان النساء العربيات كن يهتمن للزين والتجمل والتبرج ؛ وان لم يكن هناك ما يمكن الاستدلال به على الطرز والزي .

هذا ؛ ومما يلاحظ ان الآيات التي ذكرت اوصاف الجنة تلهم ان الرجال ايضاً سيحلون بأساور من الفضة والذهب واللؤلؤ . وقد جعلنا هذا نتساءل عما اذا كان رجال العرب في بيعة النبي (ص) وعصره يحلون بالأساور الفضية والذهبية واللؤلؤ بشكل ما؟ ونحن نميل الى الاجابة على هذا بالإيجاب ، اتساقاً مع الحكمة القرآنية الملحوظة في اوصاف الجنة ، وهي ذكر اطيب ما عرف وألف ، وان لم يمكن تحديد شكل ذلك ، ولعله قصد به او مما قصد التختم بالذهب والفضة وجعل حبات اللؤلؤ خصوصاً للخواتم .

= ٢٥ =

تاسعاً اسلحة الحرب وفنون القتال :

ولقد رأينا ان نلحق بهذا البحث ما كان عند العرب قبل البعثة من أسلحة وفنون حربية مما تلهمه الآيات القرآنية ، مع التنبيه على ان الوارد في القرآن من هذا ليس شيئاً كثيراً :

(١) ففي صدد الاسلحة ورد أولاً تعبير « الاسلحة » في آية النساء التالية :

« واذا كنت فيهم فأقت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك واياخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك واياخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم . . . » ١٠٢

وواضح ان هذ التعبير يشمل انواعاً من الاسلحة . وقد ورد في الآيات التالية

اسماء بعض هذه الأنواع :

١ = « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم

٩٤ المائدة

٢ - ٥ وجعل لكم سراويل تقيم الحر وسراويل تقيم بأسكم . ٨١ النحل

٣ = وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل اتم شاكرون

٨٥ الانبياء

٤ - « ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطير وألنا له الحديد .  
أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير . . .  
سبأ ١١/١٠

ومع ان بعضها في صدد ما كان يصنعه داود ( ص ) من الدروع فإن أكثرها  
قد خوطب به المسلمون ، وفيها ما يلهم ان ما كان يصنعه كان مما يستعملونه ايضاً .  
وعلى هذا فأنهم عرفوا واستعملوا الرماح وسراويل الحرب — والبأس بمعنى  
الحرب — اي ثياب الحرب من دروع ومغافر وأكمام الخ . والروايات اليقينية  
تذكر السيوف على انها كانت من اسلحة العرب الرئيسية كما لا يخفى ، ومما لا يتحمل  
الشك انها تدخل في مشمول تعبير « الاسلحة » الوارد في آية النساء ، بل ان من  
الممكن ان يقال انه عنها في الدرجة الاولى ، لأنها هي التي يحملها المرء حملاً  
ملازماً ولا يخلمها — لا يضعها — إلا عند الضرورة .

( ٢ ) وفي صدد اسلوب القتال ورد في سورة الانفال الآيات التالية :

« يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن  
يولوهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله  
ومأواه جهنم وبئس المصير . . .  
١٥ - ١٦

وورد في سورة الصف الآية التالية :

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .  
٤  
فهذه الآيات تلهم ان من اساليب العرب في القتال الزاحف والقتال صفوفاً ؛ وانهم  
كانوا احياناً مع ذلك ينقسمون الى جماعات او فئات ، وان المقاتلين كانوا يتحرفون  
في القتال كراً وفرأ ، وينتقلون اثناء المعركة من نقطة الى نقطة ومن جماعة الى جماعة  
( ٣ ) وفي صدد النفرة الى الحرب وردت الآيات التالية :

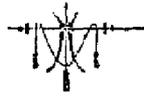
١ - يا ايها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات او انفروا جميعاً .

النساء ٧١

٢ - انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالکم وانفسکم في سبيل الله .

التوبة ٤١

وهذه الآيات هي بسبيل استنفار المسلمين الى قتال المشركين ؛ غير ان المصطلحات التي احتوتها لا بد من ان تكون مألوفة في الاستنفار الى الحرب والاستجابة اليه ؛ وبالتالي فأنها تلهم بأن العرب كانوا حينما يدعوهم داعي الحرب يخرجون اليها جماعات جماعات او جمعاً كثيفاً كما انهم كانوا يخرجون اليها بأسلحة خفيفة وبدون اثقال احياناً وبأسلحة ثقيلة وبأثقال احياناً ، ولعل هذا ما يعني فيما يعنيه انهم كانوا يخرجون ومعهم نساؤهم حيناً وبدون نساء حيناً آخر حسب ظروف الحرب والدعوة .



# الفصل الثالث

## الجاليات الأجنبية في الحجاز

استدلالات قرآنية على وجود اجانب في مكة - الآيات المكية في الكتابين -  
دلالة الآيات على احوال الكتابيين في مكة - استدلالات على نصرانية اكثرهم -  
بحث في جنسية نصارى مكة - دلالة على حداثة عهد نزوح بعض الاجانب منهم -  
عدم تكتل النصارى ودلالته - بحث في احتمال وجود اسرائيليين في مكة واستدلالات  
قرآنية - دلالة خلو القرآن المكي من الحملات على اليهود المعاصرين - اليهود في  
المدينة - كثرة الآيات المدنية فيهم واسلوبها ودلالته - اسرائيلية اليهود - مركزهم  
واثرهم الديني والطائفي - اندماجهم في حياة العرب الاجتماعية ومداه - نشاطهم  
السياسي - قلاعهم وحصونهم - كثرتهم وانتشارهم - ثروتهم - تعاطيهم الربا  
واثره - قدم عهدهم في الحجاز - صور قرآنية عن اخلاقهم - تعاطيهم السحر -  
مظاهر مسكنتهم وذاتهم وشتاتهم - اثر اليهود في العرب - الأُجانب والنصارى  
الآخرون في المدينة - الآيات المدنية في النصارى - دلالة الآيات على لقاء النبي  
(ص) نصارى - ترجيح احتمال وجود طائفة نصرانية مستقرة - ترجيح احتمال  
وجود نصارى غير عرب - اخلاق النصارى واثرهم .

## النصارى والُجانب في مكة

- ١ -

في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على وجود جاليات اجنبية في الحجاز وفي  
مكة والمدينة بنوع خاص كانت تعيش الى جانب العرب في عصر النبي عليه السلام .

والآيات في صدد وجود هذه الجاليات في المدينة أكثر وأوضح منها مما هو في صدد وجودها في مكة بل انه ليس في القرآن المكي إلا آية واحدة فيها صراحة تامة وهي آية النحل :

ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ...

١٠٣

حيث حكت قول مشركي قريش ان الذي يعلم النبي ( ص ) شخص في مكة ، ويظهر انهم عينووه ، وهو غير عربي بل ولا يحسن العربية . على انه يوجد في القرآن المكي آيات عديدة يمكن الاستدلال بها على وجود جالية اجنبية في مكة وان لم تكن في صراحة هذه الآية .

ففي سورة الفرقان اية تقارب في معناها آية النحل ولكنها ليست في صراحتها وقد جاءت في صيغة تلهم الكثرة من جهة اخرى بينما آية النحل انما أشارت الى شخص واحد . وهي :

وقال الذين كفروا ان هذا الاثر افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ...

الفرقان ٤

فمن المحتمل جداً ان يكون المعنى في هذه الآية ايضاً فريقاً من جنس الشخص الاول وبالتالي من جالية اجنبية موجودة في مكة . وهذه الآية وتلك تلهمان بالاضافة الى وجود جالية اجنبية ان بين أفراد هذه الجالية فريقاً متميزاً في عقله وثقافته الدينية وغير الدينية . لأن مشركي قريش لم يكن لهم ان ينسبوا هذا الامر الخطير وهو تلقين النبي ( ص ) وتعليمه ما يتلوه من الآيات والذكر الرائع في اسأوبه وروحانيته الى شخص او أشخاص ما لم يكونوا قد عرفوا انهم مظنة هذا التعليم والتلقين بما هم عليه من ثقافة وعقل (١) .

(١) يجد المتتبع لروايات السيرة والتاريخ واسماء الصحابة أسماء عدد غير قليل من الاجانب الذين كانوا في مكة في حقبة البعثة النبوية منهم من كان مملوكاً ومنهم من كان صانعاً ومنهم من كان تاجراً . ونورد الاسماء الآتية كأثلة :

١ - جبر الرومي وقيل انه كان حداداً ومملوكاً لعامر الخضرمي وانه هو الذي-

وهناك غير هذه الآية آيات مكية كثيرة نزلت في صدد أهل الكتاب ،  
والأستشهاد بهم على اعتبار أنهم أهل العلم والذكر والكتاب ، وفي صدد موقفهم  
من الدعوة الإسلامية ومجادلتهم ومناقشة عقائدهم وخلافاتهم تورد منها مايلي :

١ - الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم  
فهم لا يؤمنون ... الانعام ٢٠

٢ - أفغير الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم  
الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ...  
الانعام ١١٤

٣ - الذين يدعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في  
التوراة والانجيل ... الاعراف ١٥٧

٤ - فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك

---

- عناه المشركون في زعيم تعليم النبي ( ص ) :

٢ - يسار الرومي وهذا رفيق لجبرا . ووصف ان الاثني كانا يقرآن التوراة  
والانجيل .

٣ - عايش غلام حويطب بن عبد العزى .

٤ - اناسطاس الرومي وهو غلام لصفوان بن امية .

٥ - صهيب بن سنان الرومي وكان ذا مال .

٦ - سامان الفارسي وقد نوهت الروايات بما كان عليه من علم وثقافة مسيحية .

٧ - نجار قبطي لم تقف على اسمه .

٨ - شماس رومي قدم الى مكة للتبشير لم تقف على اسمه . ( اقرأ تفسير

البيضاوي في صدد تفسير آيتي النحل والفرقان وتفسير الخازن ج ١ ص ١٣٧

و ١٣٨ وابن هشام ج ١ ص ١٨٢ و ٢٠٥ - ٢١٠ و ٢٩٦ وج ٢ ص ٢٣٠ وأسد

الغابة في اسماء الصحابة حيث يوجد فيه اسماء عدد كبير من الاحباش وغيرهم كانوا

في مكة وأسلموا .

- لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين
- يونس ٩٤
- ٥ - والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك . . .
- الرعد ٣٦
- ٦ - وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحى اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون . . .
- النحل ٤٣ (١)
- ٧ - قل آمنوا به اولا تؤمنوا ان الذين أتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً . . .
- الاسراء ١٠٧ - ١٠٨
- ٨ - (٢) ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . . .
- مريم ٣٤ - ٣٧
- ٩ - وليعلم الذين أتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم . . .
- الحج ٥٤
- ١٠ - ان هذا القرآن يقصُّ على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون .
- النمل ٧٦
- ١١ - الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين . . . القصص ٥٢ / ٥٥
- ١٢ - ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم

(١) في سورة الانبياء آية مماثلة لهذه الآية وهي الآية (٧)

(٢) هذه الآيات بقية سلسلة فيها قصة ولادة يحيى وقصة ولادة عيسى (ص)

تضمنتا التنبيه على معجزة الله في الولادتين وكأنتما اريد بالاولى تمهيد للثانية فولادة يحيى (ص) معجزة فلا يقتضى ان يكون ابناً لله وولادة عيسى (ص) مثلها معجزة فلا يقتضى ان يكون ابناً لله او جزءاً من الاله . . .

وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا والهمم واحد ونحن لهم مساهمون .  
وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن  
به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ... العنكبوت ٤٦ - ٤٧

١٣ - ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع  
سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من  
يشاء وهو العزيز الرحيم ...  
الروم ١ / ٥

١٤ - ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى  
صراط العزيز الحميد ...  
سبأ ٦

١٥ - وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من  
ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه  
مريب ...  
الشورى ١٤

١٦ - ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا أءألهتنا  
خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أذعننا  
عيله وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ...  
الزخرف ٥٧ - ٥٩

١٧ - ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض  
الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط  
مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم ...  
الزخرف ٦٣ - ٦٥

### - ٣ -

فهذه الآيات يمكن ان تلهمنا مايلي :

- ١ - إنه كان في مكة أناس من اهل الكتب السماوية وكانوا من جملة من  
اتصل بهم النبي ( ص ) ودعاهم الى التصديق برسالاته ومتابته .
- ٢ - انهم لم يكونوا قايامين . وان منهم من كان ذا سعة وثروة تمكنه من  
الاتفاق في سبيل البر والخير ، كما ان منهم من كان قوي النفس والشخص بحيث

لا يزال بلوم زعماء المشركين على متابعتهم للنبي (ص) ، (١) وهذا وذاك يلهمان ان منهم من كان ارقى طبقة من ارقاء وغلمان في خدمة الزعماء والتجار وملك ايمانهم .  
٣ - ان منهم من كان متميزاً في ثقافته ومعارفه الدينية بحيث كان اهلاً للرجوع اليه واستشهاده في امر رسالة النبي (ص) وصحة وحي الله اليه وصدق القرآن ؛ وان هذا الفريق لم يكن نكرة في اوساط مكة ؛ بل وكان موضع اعتماد وثقة من العرب او اهل مكة ، ومرجع استفتائهم في الامور والمعارف الدينية والديوية .

٤ - انهم على العموم كانوا رقيقى العاطفة دمى الاخلاق ، ثابتين في ما يعتقدن انه الحق ولو لقوا في سبيل ذلك العنت ، جريئين في اظهار عقيدتهم ؛ وقد تجلت جرائتهم في متابعة النبي وسجودهم عند سماع القرآن واعلانهم انه الحق ، وعدم مبالاتهم بما كان عليه اكثر اهل مكة وزعمائهم الاقوياء من الموقف الجحودي .  
٥ - ان منهم من كان مجادلاً حجاجاً بل ومتطرفاً في الجدل والحجاج الى درجة عده ظالماً متجنياً فيها .

٦ - ان ايراد قصتي ولادة يحيى وعيسى (ص) بسبيل الرد على زعم الوهمية عيسى (ص) او نبوته لله ، وايراد خبر انكسار الروم النصراني مع بشرى انتصارهم بعد قليل ، والجدل ثانية في امر حقيقة عيسى (ص) ورسالته يمكن ان يلهم ان الكتابيين الذين انطوت الآيات على ملهات وجودهم في مكة هم او اكثرهم من النصراني .

## - ٤ -

ومع ان من المرجح كثيراً ان من هؤلاء من كان عربي الجنس مستقراً (٢)

---

(١) هذا ما تلهمه آيات القصص .

(٢) في حديث رواه البخاري عن عائشة (رض) ان ورقة بن نوفل

ابن عم خديجة (رض) كان قد تنصر وقرأ العبرانية وكتب بها ، ووجود نصراني عرب غيره ولو افراد في مكة مما لا يحمل شكاً في اعتقادنا .

في مكة او متردداً (١) عليها من اليمن وأطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت النصرانية سائدة بين حضر العرب وقبائلهم ، والاتصال مستمراً فأن مما لا يصح الشك فيه وبلاستناد الى صراحة آية النحل ان منهم من كان غير عربي ايضاً ، سواء منهم ممن تلهم الآيات انه مستقر في مكة او ممن يخطر بباله انه طارق او زائر او وافد مستطلع . والذي نرجحه ان اكثر افراد الجالية الاجنبية المقيمين في مكة هم من النصارى الروم والسرمان والسوريين وانهم جاؤوا من بلاد الشام اما بتشجيع من بعض تجار قريش ، ليكون عندهم من يقوم بما هم في حاجة اليه من الصناعات ، واما بسبب اضطهاد وقع عليهم ، فلقوا في مكة او من زعمائها ترحيباً وتشجيعاً . فبلاد الشام متصلة بالحجاز والاسفار بينهما متواليمة ، وقديماً كانت مهجراً للاسرائيليين من بلاد الشام كما انها كانت مقصداً للطراق ، يفدون اليها من حين الى آخر الاعمال الصناعية حيناً والتجارية حيناً والتبشيرية حيناً . وفي روايات السيرة ما يستأنس به على كل ذلك ، هذا بالإضافة الى ما كان يتكرر في بلاد الشام من ثورات واشتباكات واضطهادات دينية متنوعة الاسباب والصور مما أشارت اليه آية في سورة البقرة :

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدنا بروح القدس ولو شاء الله ماقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ماقتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٢) ٢٥٣

وما يخطر بباله ان يكون حافزاً الى هجرة من هاجر الى مكة والاستقرار فيها . واذا كنا نرجحنا جنسية وصفات ومصدر هؤلاء الاجانب على الوجه الذي

---

(١) في كتاب حياة محمد اللدكتور هيكل ان وفداً نصرانياً قدم الى مكة مستطعماً وانه لم يلبث ان آمن بصدق والرسالة النبوية والوحي القرآني وان اهل مكة انتقده وعاب عليه عمله ٥٠٠

(١) اقرأ كتاب فتح مصر لبطار ترجمة ابي حديد ص ١٣ - ١٣٣ ففيه مؤيدات مفصلة .

ذكر فاننا لانفي ان يكون منهم افراد من المصريين والعراقيين والاحباش والفرس  
صناعاً او تجاراً او ارقاء عند بعض زعماء مكة وتجارها ، وروايات السيرة تساعد  
على الايجاب بل والجزم ايضاً . (١)

وتنوع جنسيات الاجانب من رومية وحبشية وعراقية ومصرية وشامية  
وسريانية وفارسية ، احراراً وارقاء يمكن ان يكون من ناحية ما دليلاً على ما كان  
من صلات اهل الحجاز ومكة خاصة ببلاد الشام وفارس ومصر والحبشة والعراق ،  
وصلات اهل هذه البلاد بها .

وليس في الامكان تحديد زمن نزوح الاجانب الى مكة واستقرارها فيها . غير ان  
آية النحل ( ١٠٣ ) تساعد على القول بان افراداً منهم على الأقل ليسوا قديمي عهد  
في مكة ، وان من المحتمل ان يكونوا جاؤوا اليها في حياة النبي ( ص ) او قبيل  
بعثته ؛ لان الآية تذكر ان الذي نسب اليه تعليم النبي أعجمي اللسان ؛ ولو كان قديم  
العهد لكان برع في اللغة العربية ولما وصف بهذا الوصف كما هو المتبادر .

وفي طيات روايات السيرة يجد المتتبع ان بعض الذين ذكرت اسماؤهم من  
مساهمي الاجانب كانوا ما يزالون يحتفظون باهجاتهم واكناتهم الأعجمية ، وان منهم  
من كان يلكن بالحاء هاء وبالصاد سيناً وبالشين سيناً وبالعين الفأ وهلم جرا .

---

( ٢ ) ١ — اقرأ الزيل (١) في الصحيفة ففيه بعض اسماء مصريين وفارسيين  
بالإضافة الى الاسماء الرومية .

٢ — يجد المتتبع لاسماء الصحابة وروايات السيرة وخاصة اسد الغابة اسماء عدد  
وافر من الاحباش كبلال ووحشي وشقران وانجشه والاسود وام ايمن الخ...

٣ — ان بعض المستشرقين يحاول ان يعاقى اهمية على تعبير ( احابيش مكة )  
الذي ورد في روايات السيرة وان يستخرج منه ان هؤلاء الاحابيش هم جوال  
اجنبية ، واكثرهم احباش . وانهم كانوا يعيشون في حي او منازل خاصة بهم في  
ظاهر مكة ، ومع ان كتب اللغة ( لسان العرب مادة حبش ) والسيرة ( ابن هشام  
ج ٣ ص ٧٤ ) لاتشجع على هذا التوسع والتخريج فانها لا يخلوان من وجهة في  
ما يتبادر لنا .

ونريد ان ننبه على امر مهم ؛ وهو اننا مع ما ذكرناه من احتمال كثرة عدد الكتابيين والاجانب النصارى في مكة فاننا لانعني انهم كانوا يؤلفون عدداً ضخماً وانه كان لهم كيان متكامل ذي اثر ايجابي واسع فيها كما كان شأن الاسرائيليين في المدينة على ما سوف نذكره بعد قليل ، بل الصحيح هو العكس ، حيث نرجح ان عددهم لم يكن ليتجاوز المئات القليلة ، وان تنوع جنسياتهم وحالاتهم وظروف هجرتهم وحادثة بعضها لم تكن لتساعد على ان يكونوا ذوي كيان متكامل ذي اثر ايجابي كبير . ومن الممكن الاستدلال على هذا بعدم وجود ما يدل على اصطدام وجدال معهم ، وكيد ودس ونشاط متنوع النواحي لهم في القرآن المبكي ، في حين ان القرآن المدني قد احتوى الفصول الطوال عن اليهود في ذلك كله .



وإذا كنا رجحنا ان الكتابيين والاجانب كلهم او جلهم نصارى فان هذا لا يعني كذلك انه لم يكن في مكة اسرائيليون ؛ بل هناك آيتان فيها ما يلبسهم ذلك .  
في سورة الشعراء الآيات التالية :

«وانه لتنزىل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين .  
بلسان عربي مبين .  
وانه لفي زبر الاواين .  
أو لم يكن لهم آية أن يعمله علماء  
بني اسرائيل ...»  
١٩٢ - ١٩٧

حيث احتوت استشهاده بعلماء بني اسرائيل ؛ و- حيث تلبسهم صيغتها ان بعض علماء بني اسرائيل قد شهد بصحة الوحي القرآني واعلان مطابقتها لما عند اليهود من علم ، ومعنى هذا انه كان في مكة بعض علماء بني اسرائيل في اثناء العهد المبكي النبوي .  
وفي سورة الاحقاف آية اخرى من هذا الباب ولكنها أكثر وضوحاً وهي :  
«قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله . فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ...»  
١٠  
حيث تحتوي صراحة شهادة واقعية من أحد بني اسرائيل على صحة الوحي القرآني ومطابقتها لما بين أيديهم ، وخبر ايمانه به .

واقدم ذكرت بعض الروايات ان آية الاحقاف هذه وآية الشعراء الاخيرة هما

مدنيتان ، غير ان صيغتهما وانسجامهما التام في سياق الآيات السابقة واللاحقة بهما واتصال موضوعها بمواقف مشركي مكة مباشرة واقامة الحجية عليهم تجعل مكيتها هي الراجحة ، وتجعل الاستدلال بها على نقاء النبي (ص) بعض الاسرائيليين في مكة صحيحاً ، وتجعل احتمال وجود بعض الاسرائيليين في مكة مستقرين قائماً ، وتجعل شمول الآيات المكية السابقة التي تضمنت استشهاد الكتابيين وایمانهم وخبر فرحهم بما انزل على النبي لهؤلاء أيضاً وارداً ووجيهاً .

وكل ما هنالك ان خلو القرآن المكي من حملات على اليهود وتثديد بالمعاصرين منهم (١) ، ومن آية اشارة الى اصطدام او احتكاك او حجاج ولجاج بينهم وبين النبي (ص) يجعل من السائع ان يقال بل ان يجزم بأنه لم يكن في مكة جالية اسرائيلية كبيرة او ذات شأن ايجابي في حياتها ومجتمعها ، وان الذين كانوا مستقرين منهم فيها لم يكونوا ليتجاوزوا الافراد . بالاضافة الى احتمال تردد بعضهم من آن لآخر عليها من المدينة ، واحتمال وجود صلوات بينهم وبين اهلها مما يصح ان يعد طبيعياً ولا يتحمل ريباً ، لا سيما وقد كان موضوع رسالة موسى (ص) ومعجزاته واحداث بني اسرائيل وخلافاتهم ، من المواضيع التي كثيرا ما جرد فيها بين النبي (ص) ومشركي مكة اولاً ، وكان لليهودية آثار متنوعة في عقائد العرب وادكارهم مما سوف نتكلم عنه في باب العقائد والاديان ثانياً ، وكان في المدينة ومناطقها جاليات اسرائيلية كبيرة لا يعقل ان تكون في عزلة عن مكة ثالثاً ولقد ورد في القرآن المكي فصول كثيرة ومتنوعة وفي اكثر السور المكية في بني اسرائيل ؛ غير انها جاءت في سياق قصص موسى (ص) وفرعون ، واحداث بني اسرائيل القدماء ، وبأسلوب مماثل لاسلوب القصص القرآنية المكية الاخرى ، واذا كان ليس فيها دلالة على وجود جالية اسرائيلية ذات شأن في مكة فأن ما فيها من اسباب وتكرار وحفاوة اكثر من غيرها من القصص ، ثم ما تكررت الاشارة اليه من خلافات بني اسرائيل واحداثهم بعد موسى (ص) ، ومن التنويه ببني اسرائيل رانبيائهم وما كان من عناية الله بهم يدل على صحة ما ذكرناه آنفاً من الصلوات والآثار .

(١) نبيه علي ان آيات الاعراف ١٦٣ - ١٧٠ هي مدنية

## اليهود في المدينة

- ٦ -

اما في المدينة فان القرآن المدني يدنا بمعلومات وافية عن الجائيات الاسرائيلية الكبيرة الموجودة في المدينة ومناطقها ؛ حيث احتوى فصولاً عديدة بمناسبة الموقف الجحودي والحجاجي الذي وقفه اليهود من الدعوة النبوية بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة ، وما كان بسبيل ذلك من احتكاك واصطدام .

وقد وجه القرآن الخطاب لليهود بتعبير « بني اسرائيل » كما نعى عليهم ملك اليهود الاقدمين مع موسى والنبيين (ص) من بعده ، وما كان منهم من تعجيز واحراج ، وكفر وتكذيب ، وغدر ونقض لكشرايع وتحريف للكلام عن مواضعه وذلك في صدر التنديد في موقفهم من النبي (ص) موقفاً مماثلاً لذلك الموقف . وفي كثير من الفصول جعل اليهود المعاصرون والقدماء موضوع خطاب وسياق وسلسلة واحدة حيث يوجه الكلام الى بني اسرائيل او الى اليهود بصيغة الخطاب القريب فيقص ما كان من الاقدمين وما كان من المعاصرين ، بأسلوب يرجح ان المقصود به تقرير الصلة اللاحمة النسبية بين هؤلاء واوائلك . وربط ما بدأ من اخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من اخلاق القدماء كأن الجميع يصرون عن جبلة وخصائص واحدة كما ترى في الامثلة التالية :

١ - يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهديكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما نزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ... البقرة ٤٠ - ٤١

٢ - يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون . واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون واتم تنظرون ... البقرة ٤٧ - ٥٠

٣- (١) وأذ قتلتم نفساً فادّارتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريك آياته لعالمكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون افتطمعون (٢) أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا حلا بعضهم إلى بعض قالوا اتخذونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون (٣) .

البقرة ٧٢/٧٦

٤- واد اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توأمت الا قليلا منكم وأتم معرضون ...

البقرة ٨٣

٥- ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ...

البقرة ٨٧

٦- سل بني اسرائيل كم آتيناكم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءتة فإن الله شديد العقاب ...

البقرة ٣١١

٧- يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ...

النساء ١٥٣

٨- لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم

(١) قبل هذه الآيات آيات ذبح البقرة وما كان حجاج بني اسرائيل مع موسى في صدره والآيات تعقيب على ذلك .

(٢) الخطاب للنبي (ص) والمسلمين وهذا ينتقل الكلام بين القدماء والمعاصرين ويستمر ضمير الخطاب القريب .

(٣) وفي هذه الآية انتقال من الخطاب عن القدماء الى الخطاب عن المعاصرين .

ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والذبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون . . . المائدة ٧٨ - ٨١



وتوجيه الخطاب الى يهود يثرب بتعبير « بني اسرائيل » بهذا الاطلاق الشمول مع هذه الصلة اللاحقة التي يجعلها القرآن بين القدماء والمعاصرين منهم يسوع الخزم بان اليهود الذين كانوا في الحجاز هم طارئون ، وانهم اسراييليون وانهم ليسوا قبائل عربية اعتنقت اليهودية ديناً كما ذهب اليه بعض الباحثين المستشرقين ، بل وايس في الحجاز قبائل عربية يهودية الدين ؛ وانه اذا كان هناك عرب قد تهودوا فانهم لم يكونوا جماعة قبلية محسوسة ، وايسوا الا أفراداً (١)

ويستلهم من فحوى الآيات التي نقلناها وغيرها ان اليهود في المدينة كانوا متكلمين وذوي مركز واثار وكيان محسوس في المجتمع العربي الذي وجدوا فيه ثقافياً ودينيماً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وحرانياً .

فالولاً انهم نشروا عن انفسهم على ما يظهر علماً واسماً في الاديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون ، والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب السماوي الذي بين ايديهم وكانوا يزهدون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون ، ويظهرون غروراً وخيلاً بذلك كله ؛ ويزعمون انهم أولياء الله واحباءه وانهم أصحاب

(١) من أسباب هذا الظن اسما يهودية عربية وتسمية قبائل اليهود بتسمية عربية على ما يتبادر : مثل بني النضير وبني قريظة الخ ومثل رفاعة ووهب وجبل ونعمان وكعب وعبد الله . وواضح ان هذا ليس مما يقوم سنداً ازاء الدلالة القرآنية الصريحة . على ان الذين تسموا باسماء عربية صرفة احتفظوا باسماء آبائهم العبرانية مثل : عبد الله بن سوريا وثلعبية بن شعيا ورفاعة بن زيد بن التابوت ونعمان ابن أيضا الخ ( أقرأ بن هشام ج ٢ ص ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٩ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٣ مثلاً )

الخطوة لديه والتقدم عنده كما يتدوا من آيات البقرة ٧٦ و ٢١١ ومن الآيات التالية  
١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به  
ثمنًا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم بما يكسبون . وقالوا لن تمسنا  
النار الا اياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ام تقولون على  
الله ما لا تعلمون . . . . . البقرة ٧٩ - ٨٠

٢ — ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون  
على الذين كفروا . . . . . البقرة ٨٩

٣ — واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما  
وراءه . . . . . البقرة ٩١

٤ — وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى (١) . = ١١٠

٥ — وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا (١) . . . . = ١٣٥

٦ — ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم (١) . . . . .  
البقرة ١٢٠

٧ — وان منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو  
من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب  
وهم يعلمون . . . . . آل عمران ٧٨

٨ — لا تحسبن الذين يفرحون بما اوتوا ويمجبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا  
تحسبنهم بمغازة من العذاب ولهم عذاب اليم . . . . . آل عمران ١٨٨

٩ — الم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء . . النساء ٤٩

١٠ — وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه . . . . . المائدة ١٨

١١ — قل يا ايها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس  
فتمنوا الموت ان كنتم صادقين . . . . . الجمعة ٦

ولعلنا لا نتجاوز اذا قلنا ان هذا الدهو والادعاء وتزكية النفس قد اثرت تأثراً

---

(١) ان سياق الآيات يدل على ان المقصودين المباشرين هم اليهود وان ذكر  
النصارى جاء استطراداً

غير يسير في العرب وفي محيط اوسع من محيط المدينة شمل في ما شمل مكة ايضاً .  
ولعل في الآيات التي نقلناها في البحث السابق في صدد اهل الكتاب والجالية  
الاجنبية في مكة والتي تضمنت استشهاد اهل الكتاب ووصفتهم بأهل العلم  
والذكر ، والتي ذكر في بعضها علماء بني اسرائيل وشاهد من بني اسرائيل على  
التخصيص دليلاً او قرينة على هذا ؛ حيث يتبادر ان من حكمة هذا الاستشهاد  
والوصف ما انبثق في نفوس العرب من ثقة في ما عند الكتابيين بوجه عام واليهود  
بوجه خاص من علم ومعرفة واطلاع .

ويظهر من بعض الآيات ان منهم من كان معروفاً بالرسوخ في العلم كما تلهمه  
آية آل عمران ١٨٨ وكما تذكره بصراحة الآية التالية :

لكن الراسخون في العلم منهم ... النساء ١٦٢



وثانياً انهم كان لهم كيان طائفي وديني وكان لهم معابد ومدارس واحبار  
وربانيون ، وكان لأحبارهم وربانيهم أثر كبير فيهم كما كانوا هم قضاتهم ايضاً وان  
احبارهم وربانيهم كانوا لا يقومون بواجباتهم في منع العامة عن ارتكاب الآثام  
والمتكرات ، بل ومنهم من كان يتخذ منصبه الديني وسيلة الى المال واكتناز الذهب  
والفضة كما تلهمه الآيات التالية :

١ — ما كان ابشر ان يؤتبه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس  
كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونيوا ربانيين بما كنتم تعملون الكتاب وبما  
كنتم تدرسون ... آل عمران ٧٩

٢ — انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين  
هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ...  
المائدة ٤٤

٣ — وترى كثيراً منهم يسارعون في الآثام والعدوان وأكلهم السحت لبئس  
ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الآثام وأكلهم  
السحت لبئس ما كانوا يصنعون ... المائدة ٦٢ — ٦٣

٤ = يأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأُحبار والرهبان أيأكلون أموال  
الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها  
في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ... التوبة ٣٤

وثالثاً انهم اندمجوا في حياة العرب الاجتماعية فصنفوا أنفسهم قبائل وبطوناً  
على نمط العرب ودخلت قبائلهم وبطونهم في المحالفات مع بطون الأوس والخزرج ،  
وكان كل فريق يتضامن مع حليفه في المسؤوليات القبلية المشتركة بما فيها  
النصرة في القتال . وقد ظلت هذه المحالفات والمسؤوليات نافذة الى ما بعد الهجرة  
النبوية (١) ، بل الى نهاية التنكيل بهم . وهذا ما تلهمه الآيات التالية:

واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم  
اقررتم وانتم تشهدون . ثم انتم هؤلاء تقولون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من  
ديارهم تظاهرون عليهم بالأثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم  
أخراجهم افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك  
منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب .

البقرة ٨٤ - ٨٥

حيث تذكر اليهود منددة بمخالفاتهم لشرائعهم في سبيل منافعهم الخاصة ،  
وتمسكهم بما يتفق مع اغراضهم واهوائهم وبذم منها ما لا يتفق مع ذلك ؛ وقد  
ذهب جمهور المفسرين الى ان هذه الآيات هي في صدد ما كان بين بطونهم وبين

---

(١) في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ - ٩٩ صيغة العهد الذي كتبه النبي

(ص) عقب استقراره في المدينة . وقد الحق في هذا العهد كل بطن من اليهود بالبطن  
العربي الذي كان حليفه قبل الهجرة وسمى اليهود باسماء البطون العربية فنقول  
مثلاً : وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يهود بني عوف امة  
مع المؤمنين ، وان ليهود بني النجار ما ليهود بني عوف الخ حتى سميت بطون الاوس  
والخزرج جميعها . وقد كان النبي (ص) يطلب من اليهود حصتهم في دية القتلى  
حسبما كانت تقضى به تقاليد الحلف العربي الاجتماعي . اقرأ ايضاً ابن هشام ج ٢

ص ١٥٥

بطون الأوس والخزرج من مخالقات كانت تقضي على بعضهم قتال بعض آخر وأسرهم  
وتقاضى الفداء عنهم تمشياً مع تقاليد العرب في عصبيتهم الاجتماعية .

وفي سورة المائدة والحشر والنساء آيات بسبيل ذلك :

١ - بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من

دون المؤمنين . النساء ١٣٨ - ١٣٩

٢ - فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا

دائرة . المائدة ٥٣

٣ - ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب إنهم

أخرجتمنا من ديارنا ونحن نطبع فيكم أحداً أبداً وإن قوتنا لننصرنكم الحشر ١١

حيث كان المنافقون يحتجون بما بينهم وبين اليهود من موثيق حلفية للاستمرار

في التآمر معهم ضد النبي (ص) والمسلمين .

ويظهر أن هذه الصلوات الحلفية كانت شديدة راسخة بينهم وبين الأوس

والخزرج مخلصيهم ومنافقيهم معاً بحيث اقتضت الحكمة تكرار الأمر

بعدم الاستمرار في موالاتهم والتنبية على ما بدا منهم من نقض وغدر وما يضمرونه

لهم من بغضاء وسوء نية كما ترى في الآيات التالية :

١ - أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم . البقرة ١٠٠

٢ - ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً

من عند أنفسهم (١)

٣ - ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما

يشعرون (١)

٤ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما

عندكم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن

كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا

لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم إلا نامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن

(١) السياق يلهم أن المقصودين المباشرين هم اليهود .

الله عليهم بذات الصدور . إن تمسكتم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تسبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط (١)  
آل عمران ١١٨ — ١٢٠

(٥) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منكم ان الله لا يهدي القوم الظالمين (٢) المائدة ٥١  
٦ — ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويخلفون على الكذب وهم يعملون . (٣) المجادلة ١٥  
ويلفت النظر خاصة الى ما تليهما آية آل عمران ١١٨ مما كان من توجهه ومحبة لليهود من ناحية العرب كأثر لشدة التوافق والتواصل والاندماج .

على ان هذا الاندماج في الحياة العربية وهذا الرسوخ في التوافق والتواصل لم يكن صادقاً ، وإنما اتخذ اليهود وسيلة للتمكن والتأثير والدفاع والبقاء ليس غير كما تليهما آية آل عمران ١١٩ والآيات التالية :

١ — ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم . (٤) آل عمران ٧٣  
٢ — ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائماً ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل (٥) آل عمران ٧٥  
٣ — ام لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيراً . ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله النساء ٥٣ — ٥٤

---

(١) السياق اولا وتعبير « من دونكم » ثانياً يلهمان ان المقصودين هم اليهود .  
(٢) السياق يلهم ان اليهود هم المقصودون المباثرون .  
(٣) السياق يلهم ان المقصود هم اليهود والآية تتدد بالمنافقين الذين يستمرون في موالاته اليهود . (٤) هذا قول اليهود لبعضهم .  
(٥) السياق في اليهود وقد كانوا يقررون عن انفسهم انهم شعب الله المختار وان مادونهم من الامم أمم ثانوية ليس عليهم اي تبعة في ما يصدر منهم نحوها ويبيحون لانفسهم كل شيء معها . وكلمة الاميين في الاصل يطلقها اليهود على الامم الاخرى وفي الحجاز اطلقوها على العرب ونوعي غير الكتابيين .

ورابعاً انهم وسعوا نطاق صلاتهم السياسية وتطابقهم في المصيبة الاجتماعية العربية الى خارج محيط المدينة ايضاً . فقد احتوت آية في سورة النساء اشارة الى موقف وحكاية لقول لهم . قال جمهور المفسرين والرواة انه كان من وفد يهودي ذهب الى مكة لعقد حلف مع زعمائها ضد النبي ( ص ) والمسلمين وكان من نتيجة ذلك ان ظاهر اليهود احزاب العرب التي قدمت تغزو المدينة في السنة الهجرية الخامسة مما اشارت اليه كذلك آية من سورة الاحزاب :

١ - ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون الذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلاً . النساء ٥١  
٢ - وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب . الاحزاب ٢٦

والارجح ان الوفد اليهودي لم يكن ليذهب في سبيل مهمة خطيرة مثل المهمة التي ذهب اليها لو لم يكن بين اليهود وقريش صلات ود وسياسة تمتد الى ما قبل الهجرة بل والى ما قبل البعثة . وفي روايات السيرة انه كان بين يهود خيبر وقبائل غطفان وذيان موثيق حلفية قديمة . وهذا مما يستأنس به بسبيل ما نحن في صده . ويلفت النظر الى الاسلوب السياسي اليهودي الذي اصطنعه اليهود في سبيل الوصول الى تحقيق غرضه مما اشارت اليه آية النساء ؛ حيث سألمهم مشركوا قريش رأيهم في ما هم عليه وما محمد ( ص ) عليه فقالوا لهم انهم اهدى سبيلاً منه ؛ وحيث طلب منهم زعماء المشركين ان يقسموا على الوفاء بالحلف عند اصنامهم في فناء الكعبة وان يتحلوا عندها معهم لينصروهم في ما اعترموا عليه ففعلوا ؛ وهكذا بررت لهم الغاية وسيلة من اشجع الوسائل مهما كان فيها من كفر صريح وعار خالد .

وخامساً : انهم قد ابتنوا القلاع والقرى المحصنة والحصون ، وكانت من القوة والمناعة بحيث انهم كانوا يمتقدون انها ما نعتهم وبحيث كان العرب يعتقدون هذا ايضاً ؛ وقد نقلنا الآيات التي تضمنت ذلك في بحث وصف يثرب وخطورتها . وعملاً لا ريب فيه ان هذه الحصون والقلاع والقرى مما كان وسيلة الى توطيد الهيبة

والقوة اليهودية في نفوس العرب ، وبالتالي من وسائل أو دلائل ما كان لهم من هيبة وقوة ، وقد تداننا في ذات الوقت :

١ - على انهم كانوا في سكناهم منعزلين عن العرب ، يعيشون مع بعضهم عيشة التكتل والأحياء الخاصة على ما جرت واستمرت عليه عاداتهم منذ القديم .  
٢ - على انهم لم يكونوا يطمئنون كل الطمأنينة في المجتمع العربي ، فعمدوا الى اتخاذ القرى المحصنة والقلاع والحصون ليقووا فيها على الحصار والدفاع في الأزمات .

٣ - على ان احدائنا خطيرة كانت تقع من حين لآخر بين اليهود والعرب اضطررتهم تجاربهم فيها الى اتخاذ هذه الحصون والقلاع والقرى . ورجح ان هذه الاحداث هي التي اضطررتهم كذلك الى عقد المحالفات مع العرب والاندماج الظاهري في تقاليدهم العصبية الاجتماعية والقبيلية .



وسادساً : ويمكن ان يستدل من الآيات القرآنية على ان اليهود كانوا جاليات كبيرة العدد متعددة القروع ومنتشرة في اما كن كثيرة من منطقة يثرب والطريق المؤدية الى الشام منها . فهناك آيات تذكر ما افاء الله على رسوله من قراهم ؛ واستعمال صيغة الجمع يلهم الكثرة كما هو المتبادر :

« ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فالله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... » الحشر ٧

وفي آيات الاحزاب التي ذكرت مظاهرة اليهود المشركين والتنكيل بهم ذكر ان الله اورث المسلمين ارضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم يطؤوها من اراضيهم ؛ والفقرة الاخيرة هي في صدد ما قلناه من انتشارهم كما هو المتبادر :

وأزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم ارضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً ...

وفي سورة الفتح اشارة غامضة فسرتها الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين

بانها عنت خيبر في الدرجة الاولى وما فتح على المسلمين بعدها مباشرة من قري وادي القرى وفدك وتيماء اليهودية ، مما هو كذلك بسبيل تأكيد ما نحن في صدده من كثرة وانتشار الجاليات الاسرائيلية :

١ — سيقول المخالفون اذا انطلقتم الى مغنم لتأخذوها ذرونا تتبعكم ...

الفتح ١٥

٢ — وأتاهم فتحاً قريباً (١) . ومغنم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكماً . وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فمجل لكم هذه (١) وكف أيدي الناس عنكم واتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها (٢) وكان الله على كل شيء قديراً ..

الفتح ١٨ — ٢١

وكتل الجالية اليهودية الكبرى كانت على ما يبدو في منطقة مدينة يثرب بالذات ، حيث كان فيها ثلاث قبائل ربما بلغ عددها بضعة آلاف ، وهي قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، وقد اجلا النبي (ص) الاوايين ونكل في الثالثة تنكيلا شديداً حسبما اقتضته وبررته الظروف . والقرآن لم يذكر هذه القبائل باسمائها ؛ ولكنه احتوى اشارات الى ثلاث حوادث تنكيالية ذكرت الروايات المتواترة التي بلغت مبلغ اليقين معها اسماء القبائل الثلاث .

آيات الحشر ٢ — ٧ التي نقلناها سابقاً تضمنت الاشارة الى حادثة بني النضير . وآيات الاحزاب ٣٦ — ٣٧ التي نقلناها سابقاً ايضاً تضمنت الاشارة الى حادثة بني قريظة . اما حادثة بني قينقاع فقد اشير اليها في الآيات التالية :

١ — قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين المتقاتلة نقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي

(١) هو صلح الحديبية

(٢) من المحتمل كثيراً ان يكون قصد بها القرى اليهودية الثانوية التي استسلمت بدون حرب نتيجة لانتصار المسلمين الحربي في خيبر . وفدك وتيماء قد استسلمتا بدون حرب على ما ذكرته روايات السيرة .

العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار . . .

آل عمران ١٢ (١) ١٣

٢ — ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فلما تشققتهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وأما يخافن من قوم خيانةً فانبد اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين (١)

الانفال ٥٥ — ٥٨

٣ — كمثل الذين من قبليهم قريباً ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم . . .

الحشر ١٥ (٢)

— ١١ —

وسابماً والآيات التي نقلناها وما احتوته من وصف لما كان لهم من اراض واموال وقرى وما وصفت به الغنائم التي غنمها المسلمون بالكثرة تدل كما هو واضح على ما كان لليهود من ثروة واسعة . ونشاط اقتصادي كبير كانت الزراعة من اهم مجالاته على ما تلهمه الآيات نفسها ، واوضح ان هذا وذاك قد جعل لهم اثراً خطيراً في حياة العرب الاقتصادية .

وثامناً وقد كانوا يتعاطون الربا . وهو العمل الذي اختصوا به تقريباً في أكثر مهاجرهم ، وكان لهم من طبيعة منطقة يثرب الزراعية فرصة الى ذلك ، لان الزراع يحتاجون عادة الى استئلاف المال الى حين الحصاد والقطاف . ومما لا ريب فيه ان هذا مما كان يجعل لليهود تأثيراً قوياً في حياة العرب الاقتصادية ايضاً . اما الاشارة القرآنية الى هذا فهي في آيات في سورة النساء نزلت في التنديد بمواقفهم

( ١ ) في تفسير الخازن وغيره في صدد تفسير آيات آل عمران والانفال وفي

ابن هشام ج ٣ ص ٣٣٤ ان المعنيين بالذين كفروا هم بنو قينقاع وان الله أمر النبي ( ص ) بانذارهم بما كان من عاقبة مشركي مكة في بدر حيث اشير اليها في آية آل عمران الثانية .

( ٢ ) هذه الآية جاءت تعقيبية على حادث تفكيك بني النضير وقد كان اجلاء

بني قينقاع قبلهم .

الجحودية والحجاجية واخلاقهم :

فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدمهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ...

١٦٠-١٦١

واعل جملة « اكلهم أموال الناس بالباطل » تلهم انهم كانوا يستغلون حاجة اهل يثرب استغلالاً أثمياً ، ويرهقونهم بالربا ومضاعفته اضعافاً كثيرة ، ولعلمهم كانوا يستعملون وسائل اخرى في سبيل ارهاقهم والاستيلاء على غلاتهم ومنتوجاتهم . وليس في الآيات القرآنية ما يمكن الاستدلال به على اشغالهم بالأعمال الصناعية والتجارية . غير ان هذا لا يعني النفي بطبيعة الحال . والمرجح انهم او انه كان منهم فئات يشتغلون بهذه الاعمال . ولقد ذكرت روايات السيرة في سياق اجلاء بني قينقاع انه كان لهم سوق يعرف باسمهم ، وانه كان في هذا السوق صاغة منهم . والتجارة عمل من اعمال اليهود الرئيسية ، ولا يعقل ان يكونوا في غفلة عنها ، وفي البيئة مجال واسع لها ، ومن اهلها من كان يبدي فيه نشاطاً كبيراً .

وتاسماً ان فحوى الآيات ودلالاتها وملاباتها بصورة عامة تلهم ان هجرة الاسرائيليين الى الحجاز لم تكن حديثة عهد ، بل وربما كانت ترجع الى بضعة اجيال او قرون ، وانهم كانوا يجيدون العربية خطاباً وفهماً بالإضافة الى ما لا يتحصل شكاً من احتفاظهم او احتفاظ عامائهم واجارهم وربانيهم على الاقل باللغة العبرانية التي كانت لغة التوراة والكتب اليهودية الدينية الاخرى (١)

- ١٢ -

وكما امدتنا الآيات القرآنية المدنية بدلالات وملامح كثيرة عن احوال الجاليات اليهودية الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحربية والتعلمية

(١) في سيرة ابن هشام اسماء عدد من شعراء اليهود وقصائدهم . انظر مثلاً الجزء الثاني ص ٣٣٧ و ٣٤٤ والجزء الثالث ص ٥٥ و ١٧٤ وفي كتب الحديث حديث عن زيد بن ثابت ان النبي (ص) امره بتعلم العبرانية من اليهود حتى يستطيع ان يحاجهم ...

والعددية ، فان فيها ما يدنا كذلك بدلالات وملهاث عما كانت عليهم اخلاقهم ايضاً .

(١) فمن الآيات ما يشير الى ما كانوا عليه من آثرة وانانية وشح ورغبة في ان يكون كل شيء لهم وحسد وجشع الى ما في ايدي النير كما جاء في آيات البقرة ١٠٩ والنساء ٥٣ — ٥٤ التي نقلناها ؛ ومن آيات سورة آل عمران التالية :

ولا يحسبن الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قلوا وقتلهم الانبياء بغير حق وتقول ذوقوا عذاب الحريق ...

١٨٠ — ١٨١

(٢) ومن الآيات ما يشير الى خلق النفاق والفس والقاء الشكوك في نفوس الآخرين قصد البلبلة والتحكيم كما تلهمه آيات البقرة ٧٦ وآل عمران ٧٣ وكما تلهمه الآيات التالية :

١ — قل يا اهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يا ايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم . يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ...

آل عمران ٩٩ — ١٠٣

وقد ذكر المفسرون والرواة ان الآيات او بعضها نزل بمناسبة دس دسه اليهود بين بعض الاوس والخزرج جر الى فتنة كادت تتسع اتساعاً عظيماً . وعلى كل حال فالآيات في اسلوبها ومضامينها تدل على سر تف دس وصد وبلبله وفتنة من اليهود بين المسلمين .

ومن هذا الباب آية في سورة المائدة انطوت على موقف تشكيك ودس يهودي

في قضية من القضايا المرفوعة الى النبي (ص) حرفوا الكلم فيه عن مواضعه  
وتآمروا فيه مع المنافقين :

يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم  
ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم  
يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه  
فاحذروا ...

٤١

(٣) ومن الآيات ما يشير الى خلق تبرير كل وسيلة في سبيل الغاية والمنفعة  
الخاصة مما احتوته آية النساء ٥١ وآيات النساء التالية :

ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا  
السبيل . والله اعلم باعدائكم وكفى بالله وياً وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا  
يحرفون الكلم عن مواضعه .

٤٤ — ٤٦

(٤) ومن الآيات ما يشير الى خلق استحلال ما في ايدي الغير وعدم اعتبار  
انفسهم مسؤولين عن الامانة لهم والوفاء بعهدهم كما تلمحه آيات البقرة ١٠٠ وآل  
عمران ٧٥ التي نقلناها سابقاً .

(٥) ومن الآيات ما يشير الى خلق عدم مبادلة الغير ما يتمتعونه منهم من ود  
وصداقة وعدم الاركان للغير او تبصيره في امر ما كما تلمحه آيات آل عمران ٧٣  
و ١١٩ والبقرة ٧٦ التي نقلناها سابقاً .

(٦) ومن الآيات ما يشير الى خلق الاجاج والحجاج والمكابرة . وهي كثيرة  
جداً وتجعل الاحمة بين اليهود المعاصرين واليهود القدماء متصلة في هذا الخلق .  
وقد اوردنا بعضاً منها في ما سبق ونورد بعضاً آخر في ما يلي :

١ — قل أتحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن

البقرة ١٣٩

له مخلصون (١)

٢ — سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها (١) = ١٤٢

٣ — وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل

(١) السياق في مواقف اليهود واحوالهم واخلاقهم .

عما يعملون . واثن اثنت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت  
بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض واثن اتبعوا اهواءهم من بعد ما جاءك من  
العلم إنك اذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن  
فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون (١)  
البقرة ١٤٤ - ١٤٦

### - ١٣ -

(٧) ويظهر من فحوى بعض الآيات انهم كانوا يتعاطون السحر . فقد ذكرت  
احدى آيات البقرة في سياق التنديد باليهود للجاحهم وتقضيم للعهد ونبذهم كتاب  
الله وعدم تصديقهم برسوله انهم بدلا من اتباع الحق اتبعوا ما تتلوا الشياطين من  
اعمال السحر في حين انهم يعرفون ما في هذا من خروج عن الدين وابتعاد عن  
جادة الرشده والهدى . ويظهر كذلك من الآية انهم كانوا يزعمون ان سليمان (ص)  
كان هو ايضا يتعاطى السحر الذي سخر به الشياطين ، وان علمهم فيه هو من  
ذلك العلم :

ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا  
الكتاب (١) كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين  
على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر  
وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولوا إنما  
نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين  
به من احد الا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه  
ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون (٢)

البقرة ١٠١ - ١٠٢

(١) السياق في مواقف اليهود واحوالهم واخلاقهم .

(٢) في تفسير الطبري ج ١ ص ٧٣ اسم ساحر يهودي في المدينة هو لبيد

ابن الاعصم . الفقرة الاخيرة من الآية الثانية ترجع الكلام الى اليهود الذين بدء  
بالكلام عنهم في اولها .

هذا ، وان آية آل عمران :

ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأوروا

١١٢

بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ...

وآية الاعراف المدنية :

واذ تأذن ربك ليعيثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء المذاب ...

١٦٧

لتلهم انهم كان مشهوداً وملموماً بوجه عام تسربل اليهود بسر بال المسكنة

والذلة ، وقد تلهم انهم كانوا كذلك في الحجاز على الرغم مما كانوا عليه من ثروة  
وعدد وكيد ومظاهر قوة كما هو شأنهم في غير الحجاز .

كذلك فان آية الاعراف :

١٦٨

وقطعناهم في الارض اثماً ...

لتلهم ان شتات اليهود في كل ناحية من انحاء الارض حالة مشهودة ملموسة

لدى غيرهم ، وان وجودهم في الحجاز كان مفهوماً انه يمت الى هذه الحالة .

وان ابن الطيبي ان يكون لليهود وهذا مركزهم وهذه دلاتهم ومشاركاتهم

في حياة العرب وتقاليدهم وهذه اخلاقهم وعاداتهم ومعايشهم اثر غير يسير في جيرانهم

العرب اهل المدينة خاصة ، وأهل الحجاز عامة . فنحن لا نشك في ان كثيراً مما كان

يبدو ان العرب قد عرفوه وجادلوا فيه ، وتطور في اذهانهم وعقائدهم وعاداتهم

من أخبار الانبياء والملائكة والشياطين وخلق العالم وقصص الامم الغابرة والذرائع

السموية ، وكذلك مما كانوا عليه من احوال معاشية وصناعية وتجارية وزراعية

بل وبمض الطقوس الدينية قد تسرب منهم الى العرب في هذه الحقبة الطويلة التي

اقاموها بين ظهرانيهم (١) وقد مرت الاشارة الى ما هو محتمل ان يكون العرب

( ١ ) في تفسير الخازن ج ١ ص ١٥٣ عن ابن عباس ان اهل المدينة كانوا

يقتدون بكثير من افعال اليهود لانهم يرونهم اهل كتاب ويرون لهم فضلاً عليهم .

قد اقتبسوه منهم من الفنون الزراعية واتخاذ الحصون والاكمام ؛ وستأتي اشارات اخرى في الفصول التالية الى ما تسرب الى العرب واقتبسوه منهم في النواحي الاخرى . وقد افردنا بحثاً خاصاً باليهودية في باب الاديان والعقائد تكملة للصورة القرآنية عن اليهودية واليهود .

### النصارى واليهود في المدينة

- ١٦ -

ونبحث الان في ما اذا كان في المدينة جالية اجنبية غير الاسرائيليين قبل البعثة ، فنقول انه ليس في القرآن اشارة صريحة الى ذلك كمثلى التي في آية النحل بالنسبة الى مكة غير انه يوجد فيه آيات مدنية كثيرة ، ورد فيها ذكر النصارى ؛ ووجه اليهم الخطاب ، وحكيث لهم مواقف مستحبة من الدعوة النبوية والقرآن وندد بمقاتلهم في المسيح ( ص ) وجردلوا فيها ، وقرع بعضهم على مواقف مكابرة وجحود وعدوان وصد بدت منهم ، وأمر بعدم موالاتهم ، كما ترى في الآيات التالية :

١ - وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى . البقرة ١١١

٢ - وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ...

البقرة ١١٣

٣ - وان ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . » ١٢٠

٤ - وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا . » ١٣٥

٥ - إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم يتقبل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا هو القصص الحق وما من إله الا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . .

آل عمران ٥٩-٦٢

٦ - يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكتبه القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله

ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً . لن يستنكف المسيح ان يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون . . . النساء ١٧١ - ١٧٢

٧ - وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه . . . المائدة ١٨

٨ - لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وانه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم . . . المائدة ٧٢ - ٧٦

٩ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . . . المائدة ٥١

١٠ - لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فآتينا مع الشاهدين . . . المائدة ٨٢ - ٨٣

١١ - واذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . . . المائدة ١١٦

١٢ - قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزيز «ابن الله» وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله الا هو

سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي ارسل رسوله بالهأى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . . .

التوبة ٢٩ - ٣٤

١٣ - ثم قمنا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فمارعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون . . .

الحديد ٢٧

وهذا بالإضافة إلى آيات وجهت فيها الدعوة إلى أهل الكتاب مطلقاً مما يرجح أن يكون خوطب بها النصارى واليهود معاً مثل الآيات التالية :

١ - يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من

المائدة ١٥

الكتاب ويعفو عن كثير . . .

٢ - يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن

المائدة ١٩

تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير . . .

بل لقد تخلص هاتين الآيتين تنديد بعقيدة ألوهية المسيح (ص) مما يسوغ القول

أنهما موجهتان في الدرجة الأولى إلى النصارى :

لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً

إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً . . .

المائدة ١٧

- ١٧ -

وإذا كان ذكر النصارى في بعض هذه الآيات قد جاء استطراداً أو تعبيراً عن

لسان حال على ما ضمناه في بحث اليهود فإن أكثرها يحتوي دلالات قوية بل وصریحة

على أن النبي (ص) قد التقى في المدينة بطوائف مختلفة من النصارى في أوقات

متفاوتة ، ودعاهم ، ومنهم من بدأ منه ما وصفته آيات المائدة ٨٢ - ٨٣ من مشهد

تصديقي رائع ، ومنهم من جادل وكابر .

وإذا كان من المرويات ان وفوداً نصرانية قد قدمت الى المدينة من نجران اليمن ومن الحبشة ومن الشام واتصلت بالنبي (ص) ومنها من تناظر معه وبقي على دينه ومنهم من آمن فان ذكر اقوال ومواقف وعقائد النصارى في الفصول التي يرجح انها نزلت في اوائل العهد المدني ، وقبل ان يستفحل امر النبي (ص) ويستقر ليسوغ القول أنه كان في المدينة طائفة مستقرة من النصارى بقطع النظر عن قلة عددها وكثرتة .

وإذا كان من المحتمل ان يكون من هؤلاء من كان عرباً متنصرين من أهل المدينة على ما كان الامر في مكة او عرباً من غير اهلها قد جاؤا واقاموا فيها لظروف اقتصادية وغير اقتصادية فليس ما يمنع ان يكون منهم من هو اجنبي الجنس ايضاً من روم وسريان واقباط وعجم الخ .. وإذا كانت ظروف الشام قد حملت بعض النصارى غير العرب على النزوح الى مكة والاقامة فيها ، وإذا كان تجار مكة قد استطاعوا جلب بعضهم بالشراء لحاجاتهم الخاصة او الاقتصادية فالتبادر ان لا يكون هذا قاصراً على مكة ، لا سيما والمدينة أقرب الى الشام من مكة وأقليمها أكثر احتمالاً على النازحين من الشام من اقليم مكة ، وقد كانت هذه الميزات مما جعل الاسرائيليين النازحين عن الشام يفضلون الاقامة فيها (١)

## — ١٨ —

وآيات التوبة ٢٩ - ٣٤ نزلت على ما يكاد يكون يقينياً بين يدي غزوة تبوك التي قادها النبي (ص) ضد نصارى مشارف الشام بسبب ما بدأ منهم من عدوان . فإذا استثنيناها لا نجد في الآيات التي نقلناها ما يدل على ان النصارى كانوا في المدينة متكئين او ذوي اثر محسوس في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية . كما لا نجد شيئاً من صور المكر والدس والتآمر والحسد والبغى الذي احتوته الآيات التي جاءت في حق اليهود ، بل نجد وصفاً شاملاً للنصارى بأنهم كانوا اقرب الناس مودة للذين آمنوا وانهم كانوا لا يستكبرون وان في قلوبهم رأفة ورحمة مما يدل بالاضافة الى

(١) في اسد الغابة ج ١ ص ٤١ ذكر نجار رومي اسمه باقوم كان مقبلاً في

المدينة وهو الذي صنع منبر النبي (ص) ونرجح ان له امثالا عديدين .

دلالاته ايضاً على عدم كثرتهم وتكثرتهم ؛ وعلى ضعف أثرهم على انهم كانوا بوجه  
الاجمال ذوي اخلاق دمثة وعواطف رقيقة ، راغبين عن اللدد والعنف في الخصومة  
الح . . مما قررنا مثله لنصارى مكة في بحث سابق استلهاماً من الآيات المكية .  
ولا يعني هذا انه لم يكن للنصرانية أثر في عقائد العرب واديانهم وافكارهم  
ومعارفهم ، فأن هذا الاثر غير خفي في كل ذلك مما سنشير اليه في الفصول التالية .  
ولقد عقدنا في باب العقائد والاديان بحثاً للنصرانية والنصارى ايضاً ، سنلم فيه بهذا  
الاثر كذلك ونكمل الصورة القرآنية عنها .

